الزوايا الكاشفة

فى كتابة تاريخنا المعاصر

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م

مكتبة الشروق الدولية

٩٧ شارع المنتزة ـ ميدان ألف مسكن ـ مصر الجديدة

تليفون وفاكس : ٢٦٣٧٣٢٧٢ ــ ٢٦٣٧٤٢٧٣

٠١٠٠١٦٣٣٧١٨

Email: <shoroukintl@hotmail.com>

http://shoroukintl.com

د. محمد الجوادى

الزوايا الكاشفة

فى كتابة تاريخنا المعاصر

مكتبة الشروق الدولية

البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

الجوادى، محمد.

الزوايا الكاشفة فى كتابة تاريخنا المعاصر/ محمد الجوادى.

ط١ . ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٤م.

١٥٢ص؛ ٢٤سم.

تدمك 978-977-701-122-8

١ ـ مصر ـ تاريخ ـ العصر الحديث [١٨٠٥م ـ].

أ ـ العنوان ٩٦٢,٠٣

Ǭǿāʒ Ŭłyŕæâł ٢١٠٤١/ ٢٠١٤م

Ǭøāƹǫǩł Ǻǩþyǩł **I.S.B.N. 978 - 977 - 701 - 122 - 8**

إهـــداء

إلى الصديق الكريم

الدكتور عبد الله تمام

المحتويات

إهداء ٥

هذا الكتاب ٩

الباب الأول: الحاجة إلى البصيرة ١١

الفصل الأول: كيف يكتب التاريخ فى مصر ١٣

الفصل الثانى: أين الخطأ فى مسلسل «فاروق» ١٨

الفصل الثالث: فى خيمة القذافى: رفاق العقيد بكشفون خفايا عهده (كتاب الأستاذ غسان شربل) ٢٤

الباب الثانى: تضافر المعرفة والتجربة ٢٩

الفصل الرابع: مذكرات آخر اليساريين النبلاء (مذكرات الأستاذ محمد العزبى) ٣١

الفصل الخامس: رحلة العمر (مذكرات السفير عبد الرؤوف الريدى) ٤٨

الباب الثالث: كتابة جديدة لتاريخ الإخوان ٥٣

الفصل السادس: حسام تمام وأبو الفتوح ٥٥

الفصل السابع: مذكرات السيدة فاطمة عبد الهادى ٧٣

الباب الرابع: التأريخ المبكر للثورة المصرية ٩٧

الفصل الثامن: يوميات من ميدان التحرير (كتاب الأستاذ سعد القرش) ٩٩

الفصل التاسع: وائل غنيم.. فى كتاب الثورة ١٢٣

الباب الخامس: قراءتان واعيتان لحربين ١٢٩

الفصل العاشر: حرب الخليج والفكر العربى (كتاب الدكتور عبد المنعم سعيد) ١٣١

الفصل الحادى عشر: سنوات الإعداد وأيام النصر (كتاب اللواء طه المجدوب) ١٤٤

هذا الكتاب

نتناول فى هذا الكتاب قضية مهمة هى كتابة تاريخنا المعاصر، من خلال المسلسلات والشاشة والكتب والحوارات والروايات والمذكرات والشهادات الحية والصحفية والدراسات والمناقضات لما هو منشور، وهى قضية لا ينتهى الحديث فيها، لكنه لا يمل إذا ما اقترن بالتأمل والتصحيح والنقد والمراجعة والاستيعاب والفهم، فهو عندئذ حديث شافٍ للحيرة العقلية، ومغذ للوجد الفضولى، وهما صفتان ملازمتان لكل وطنى، كما أنهما سمتان لازمتان لكل مثقف.

وقد استعنا على تناول هذه القضية بدراسات متعددة كتبناها فى مناسبات متعددة وتدارسنا فيها أعمالًا تناولت تاريخ الملك فاروق، كما تناولت تاريخ القذافى، ومذكرات كتبها صحفى لامع هو الأستاذ العزبى، وأخرى كتبها سفير مؤثر هو السفير الريدى، وروايات حسام تمام عن تاريخ عبد المنعم أبو الفتوح، ورواياته الأخرى عن السيدة فاطمة عبد الهادى، وذكريات شخصية عن ثورة يناير، سجلها الروائى سعد القرش، وأخرى سجلها واحد من رموز الثورة، هو وائل غنيم، وأخيرًا دراسة عن حرب الخليج، كتبها الدكتور عبد المنعم سعيد، وأخرى عن حرب الاستنزاف، كتبها اللواء طه المجدوب.

وقدمنا قبل هذه الفصول العشرة فصلًا يروى بتأمل يقظ أسلوبًا من أساليب التأثير على كتابة التاريخ فى مصر.

ومع أن معظم فصول هذا الكتاب كتبت بعد ثورة يناير ٢٠١١ فإن فصلى الباب الأخير ينتميان إلى القرن العشرين، وقد نشرت الفصل العاشر منذ أكثر من عشرين عامًا.

وكما هى عادتنا فإننا لم نتوان فى هذا الكتاب عن الاعتراف بتوجهاتنا فى الحكم على الأمور والوقائع، لكننا تعاملنا مع الأحداث تعاملًا مهذبًا يقرأ ما تبعثه من ضوء وإشعاع، ولا يفرض عليها ضوء مصباح، ولا ضوء مرآة، ولا يسقط عليها إحباطًا نشأ عن طموح فشل أو عاطفة انقضت أو أمل تم وأده أو اتفاق تم نقضه.

وإنى أدعو الله – سبحانه وتعالى – أن أكون قد أديت بهذا الذى كتبت بعض واجبى تجاه وطنى وأبناء وطنى، وأن يجد بعضهم بعض الفائدة فيما يقرأون، وأن يجدالبعض الآخر بعض المتعة فيما يطالعون، وأن نعيش حتى نرى فى وطننا كثيرًا مما يستحق الفخر والإعجاب والتقليد.

وكلى أمل أيضًا أن يسهم هذا الكتاب أيضا فى تنمية وعينا بمشكلاتنا وحاضرنا واقتصادنا وتنميتنا وهياكلنا وعيوبنا وأخطائنا وآمالنا وأحلامنا وتطلعاتنا.

والله – سبحانه وتعالى – أسأل أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه، وإن كنت أعلم عن نفسى أنى لاأخلو من الرياء فى كل ما أفعل.

والله – سبحانه وتعالى – أسأل أن يهدينى سواء السبيل، وأن يرزقنى العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم على بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين.

والله – سبحانه وتعالى – أسأل أن يمتعنى بسمعى وبصرى وقوتى ما حييت، وأن يحفظ علىَّ عقلى وذاكرتى، وأن يجعل كل ذلك الوارث منى.

والله – سبحانه وتعالى – أسأل أن يذهب عنى ما أشكو من ألم وتعب ونصب وقلق، وأن يهبنى الشفاء والصحة والعافية، وأن يقيلنى من مرضى، وأن يعفو عنى، وأن يغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر، وأن يحسن ختامى، وأن يجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم ألقاه.

والله – سبحانه وتعالى – أسأل أن يعيننى على نفسى، وأن يكفينى شرها، وشرالناس، وأن يوفقنى لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعنى بما علمنى، وأن يعلمنى ما ينفعنى، وأن يمكننى من القيام بحق شكره وحمده وعبادته، فهووحده الذى منحنى العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول، وهو – جلَّ جلاله – الذى هدانى، ووفقنى، وأكرمنى، ونعّمنى، وحبب فىَّ خلقَه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتى، وهى – بالطبع وبالتأكيد – كثيرة ومتواترة ومتنامية، فله – سبحانه وتعالى – وحده الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل.

د. محمد الجوادى

الباب الأول

الحاجة إلى البصيرة

الفصل الأول

كيف يكتب التاريخ فى مصر

(١)

روى لى مؤرخ راحل هذه القصة، وكلفنى بأن أكتب هذه القصة بأسلوبى.

سألنى أحد الصحفيين اللامعين عن الوسائل التى كانت الدولة المصرية تلجأ إليها فى إعداد وزرائها المستقبليين، وقد صاغ سؤاله بطريقة ذكية، وطلب منى إجابات محددة على نحو ما هو معروف عنى، وقال: إنه لا يمانع فى بعض التنظير الذى لا يجد غيره عند الآخرين – على حد تعبيره.

قلت للصديق: إن المسألة تتضح بالمناهج بأفضل مما تتحدث عن المبادئ، وتتضح بذكر الأسماء محددة وكاملة، قال: هذا هو ما أبحث عنه، قلت: لكنك سوف تختصر الأسماء وتكثر من التنظير.

ومع هذا تحدثت لصديقى على مدى ساعة كاملة، وهو يسجل، ويستفسر، وخرج بموضوع كبير نشرته الصحيفة الأولى، أو التى بين الأولى والثانية فى مصر.

(٢)

كان مما ورد فى كلامى أن الدولة لجأت فى نهاية وزارة ممدوح سالم إلى الأخذ بتقليد الوكلاء البرلمانيين، وهو تقليد كان قد بدأ فى وزارة الوفد (١٩٣٦)، وقد عين بمقتضاه فى ١٩٣٦ أربعة أصبحوا (بل كانوا أيضًا) من نجوم الحياة السياسية فى حقبة الليبرالية، وقد أثبتت هذه الوظيفة نجاحها فى عهد كان يبحث عن كل الوسائل الكفيلة بالنجاح، ولا يكتفى بواحدة من الوسائل، أو يبتعد عن إحدى الوسائل، تاركًا الفوضى والصدفة والإلهام.. إلخ.

كان طبيعيًّا مع عودة الحزبية فى ١٩٧٦ أن تعود مصر إلى تراثها فى هذا الشأن، وهكذا فإن النظام أعلن عن العودة إلى فكرة الوكلاء البرلمانيين، وفى ١٩٧٨ اختارت الدولة ثمانية لتعينهم وكلاء برلمانيين، وكانوا هم:

- يوسف نصار.
- توفيق زغلول.
- محمد السودانى.
- عمر أبو ستيت.
- أحمد فؤاد عبد العزيز.
- كمال الشاذلى.
- عبد البارى سليمان.
- محمد عبد الحميد رضوان.

وبالطبع نحن نعرف أن اثنين من هؤلاء أصبحوا وزراء بالفعل، فقد وصل آخر الثمانية إلى الوزارة فى سبتمبر ١٩٨١، ووصل سادسهم إلى الوزارة فى نوفمبر ١٩٩٣.

(٣)

أتفهم بالطبع دواعى الاختصار فى الكتابة الصحفية، وهكذا فإن صديقى كان مهتمًّا بإبراز اسم كمال الشاذلى دون أن يذكر أسماء كل الثمانية الذين أمليت عليه أسماءهم.

ما إن نشر الموضوع الجميل حتى اتصلت إحدى كبار الموظفات فى مجلس الشعب بأحد أقاربها الأقربين الذى كان يشغل منصبًا كبيرًا فى الجريدة، وقالت له: إن كمال الشاذلى لم يكن وكيلًا برلمانيًّا.

(٤)

دخل صديقى الصحفى الجريدة فوجد خبرًا ينتظره بالمرور على الصحفى الكبير جدًّا، أثنى

الكبير للصديق على الموضوع، وأنهى إليه ما أنهته إليه قريبته، وطلب إليه أن يبحث فى الطريقة المثلى لإظهار رأى قريبته أو عبقريتها، وبخاصة أنها تشغل موقعًا مرموقًا فى المجلس، سيزداد تألقًا بأن ينشر لها مثل هذا التصحيح.

كاد رأس صديقى الصحفى ينفجر، لسبب واحد، لأنه أحس أنه هو نفسه المخطئ فى حق نفسه، فلو كان قد نشر الأسماء كلها على نحو ما أمليتها عليه، لكان هذا حريًّا بترهيب أمثال هذه السيدة الكبيرة من الاقتراب من منطقة التعقيب والتصحيح المزعوم، لكن حرصه على التخفيف فى الصياغة، والتقليل من الأسماء من أجل الفكرة العامة، أوقعه دون قصد فى هذا الموقف غير المستحب.

ومع هذا فقد رأى أن يستأنس برأيى، باعتبارى – على حد قوله – نجم الموضوع، أو المصدر الرئيسى فيه.

(٥)

هاتفنى وقص القصة، وفوجئ بأنى أطلب منه ألا يقاطعنى، ابتسم برغم عصبيته وقال: تفضل، قلت: تذهب الآن إلى الأستاذ الكبير، وتطلب إليه أن يكتب التعقيب أو التصحيح على هيئة رسالة إلى الجريدة، وأن يأمر بحكم سلطته بنشر الرسالة فى مكان بارز فى جريدة الغد مباشرة، أما هو فعليه أن يصمت تمامًا، فإذا سئل من أى من الزملاء فليجب بأن هذا هو ما رواه المصدر، وهذا هو ما صححته السيدة الكبيرة، وأن الأمر انتهى عند هذا الحد!!

قال صديقى بعد تنهيدة: سأفعل كل ما قلته بالـمِلِّى والحرف.

قلت: لا أسألك أن تفعل، بل أرجوك أن تجعل الأمور تسير فى هذا الطريق.

(٦)

كان صديقى الصحفى ذكيًّا وصاحب نفوذ، ومتمرسًا وقادرًا، وذا علاقاتٍ وقد نفذ ما أشرت به بالحرف.

بعد يومين كنت فى صالة التحرير فى تلك الجريدة، فإذا بكل من قابلنى يبتسم، وإذا بأستاذنا المسئول الكبير يقول لى فى بساطة: الآن عرفت لماذا كان المرحوم فلان (وكان هذا هو أستاذه) يقول: إنك ستكون عالـمًا كبيرًا جدًّا، لكنك لن تكون صاحب حظ فى السياسة ولو صغيرًا جدًّا.

قلت: كنت أظن حضرتكم تقولون العكس.. لأن الذى فعلته هو السياسة بعينها، وليس العلم.

لقد تركت الدفاع عن الحق من أجل ألَّا أفقد صداقتك.. ولقد تركت نفسى أظهر أمام الناس كأنى أخطأت حتى أعطى الفرصة لغيرى ممن يريدها.

ولقد أهملت الأمر حتى كأنى لست معنيًّا بما قلت ورويت، مع أن الذى قلته كان جوهر موضوع، ولم يكن هامشًا لموضوع.

قال الرجل العظيم وهو يبتسم: هذه يا سيدى أخلاق العلماء، أما السياسيون فإنهم لا يهملون بيع ما فى أيديهم، ولا ما يقع فى أيديهم، بل إنهم يوهمون الناس أن فى أيديهم شيئًا يبيعونه.

قلت: إذا كان الأمر كذلك فإنى لا أفهم فى السياسة.

قال الرجل مجاملًا: وهذا ما قلناه، لكننا لا نقول هذا إلا بعد أن نعترف بأنك عالم كبير.

قلت: أما أنا فلا أظننى عالـمًا أبدًا.. لا كبيرًا ولا صغيرًا، إنى لا أعتقد فى العالم الذى لا يدافع عن العلم الذى يصرح به أو يعتقد فيه.

قال الرجل الكبير بكل حب: هذا الدفاع هو شأن العالم، أما العالم الكبير فإنه لا يعنيه هذا، لأنه يعرف أنه قال الصواب، وفعل الصواب.

(٧)

شكرت الرجل الكبير، وبدأت أحاول أن أقنع نفسى بما قال، وأن أفرح بما قال، لكنى وجدت ضميرى يتعذب.

الحق أقول لكم: إنه لا يزال يتعذب.

بل إنه يتعذب كثيرًا بسبب كثير من هذه المواقف التى أكسب فيها حبَّ الناس وتقديرهم، لا لشىء إلا للصمت على الخطإ القائم.. أو الصمت على الحق الضائع.

■ ■ ■

الفصل الثانى

أين الخطأ فى مسلسل «فاروق»

(١)

لا يمكن لشعب عريق مثل الشعب المصرى أن ينظر إلى مسلسل تليفزيونى يتناول فترة من تاريخه القومى إلا فى إطار وعى أكبر بالوطنية، وبالتاريخ، على حد سواء، ويتجلى هذا الوعى فيما يثيره المسلسل من ردود فعل فورية ولاحقة، على أن الأهم من ردود الفعل هو الانتباه إلى ضرورة الفعل الغائب الذى ينبغى علينا أن نمارسه من أجل تاريخنا.

ولما كانت العواصف التى أثارها عرض مسلسل «الملك فاروق» قد بدأت تهدأ، فقد آن الأوان لمناقشة موضوعية حولها، وحول ما تعكسه هذه العواصف من تفاعلات الرأى فى نفسيات كثير من المصريين، وفى عقلهم الجمعى، على حد سواء.

وقد دلتنا التجارب الدرامية الماضية على أن الجماهير تريد أن ترى، وأن تشاهد، وأن تسمع، وأن تتأمل، كما أن هذه الجماهير بطول الوطن العربى وعرضه ومهجره، وليس فى مصر وحدها، تتشوق حقيقة إلى كل ما يشكل وجدانها، ويصور تاريخها، وهى تنفق على هذا الاهتمام من وقتها، ومن أعصابها، ومن مالها، ومن مواردها الأخرى بما لا يقل عن أى جماهير أخرى فى مجتمعات متقدمة، بل ربما تتفوق.

(٢)

ومع هذا الترحيب الجماهيرى منقطع النظير للأعمال الدرامية التى تتناول تاريخ الوطن فإن القنوات التليفزيونية (فضائية وأرضية، محلية وقومية) لا تزال متأخرة عن طموح الجماهير

بمراحل، على الرغم من أرقام الإنتاج التى تصور مرتفعة، وما هى كذلك، وعلى الرغم من أجور المؤدين التى تصور أيضًا مرتفعة، وهى كذلك بالفعل!!

لا تزال الأرض المتاحة للكتابة عن تاريخنا أرضًا بكرًا تتطلب عناية، وتؤتى ثمارًا، وهى بسبب هذه البكورية قادرة على أن تؤتى ثمارًا مهما كانت العناية ضعيفة.

وربما كان مسلسل «فاروق» نفسه دليلاً واضحًا على هذا، ومع الاعتراف بأن هذا المسلسل عرض ما عرض، وقال ما قال، وأثار ما أثار، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر أن حديث هذا المسلسل عن موضوعه كان حديثًا كاريكاتيريًّا، مثله فى ذلك مثل ما تدل عليه القصة القديمة التى كان بطلها جندى طلب منه قائده أن يأتى بصورة شخصية يظهر فيها الوجه كاملاً، فسأله: إلى أى حد؟ فقال: بحيث تظهر أذناك كلتاهما، وحذره من أن يأتى بصورة من صور النجوم «البروفيل» التى تظهر جانب الوجه فحسب، وفى سبيل حرص الجندى الأمى على تعليمات قائده فإنه اختصر القضية إلى قضية الأذنين، وهكذا حدد طلبه للمصور الذى كان يعانى من ضعف إمكانات الكاميرا التى كان يستعملها، ومن ثم فإنه لم يجد بدًّا من أن يصور رأسه من مؤخرتها، مظهرًا الأذنين فحسب.

(٣)

ويبدو لى أن هذا ما حدث فى أثناء الصياغة الدرامية لمسلسل «فاروق» الذى يمكن أن يوصف فى اختصار بأنه صور حلقات كثيرة عن أحداث كان يمكن دمجها فى حلقة واحدة، وفى المقابل فإنه صور حلقة واحدة عن أحداث كان ينبغى الحديث عنها فى حلقات كثيرة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، لكن المسلسل حرص على إظهار بعض صفات فاروق الشخصية الجيدة، وحرص على إظهار بعض ملامح الوطنية عنده، لكنه فى سبيل ذلك أهمل تصوير العصر تصويرًا دقيقًا، كما أهمل المسلسل تصوير الصراع التاريخى الممتد الذى كان فاروق جزءًا منه، لا صانعًا له، ولا متحكمًا فيه.

وأهمل المسلسل تصوير الصراع الاجتماعى الذى صاغ التحول التاريخى الذى حدث بنهاية عهد فاروق، وأهمل المسلسل تصوير ملامح الصراع الاقتصادى الذى فشل فاروق فى لعب

دور محدد فيه من ثلاث نواحٍ: باعتباره ملكًا، وباعتباره رئيس دولة كان مفرطًا فى التدخل فى شئون الحكومة، وباعتباره هُو نفسه واحدًا من قوى الرأسمالية بثروته أولًا، وبمخصصات الأوقاف التى كانت نظارة كثير منها مرتبطة بمنصبه وبأموال الخاصة الملكية، وعائلته التى كان هو نفسه قيمًا على بعض أفرادها لأسباب متعددة.

(٤)

فشل المسلسل أيضًا فى تصوير النهصة العلمية والحضارية التى عاشها عهد فاروق نتيجة لنجاح ثورة ١٩١٩ من قبل، وفشل المسلسل أيضًا فى تصوير الدور الخارجى النشط الذى قامت به مصر وساستها مختلفو الأهواء والمشارب، والدور الذى قام به فاروق نفسه فى عديد من الأزمات الدولية التى تلاحقت قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها.

وأهمل المسلسل الحديث عن مصر التى كانت فى ذلك الوقت بمثابة الملاذ الآمن على مستوى العالم كله والتى كانت فى هذا الإطار ملجأ الساسة الأوروبيين البارزين، ملوكًا سابقين، وأولياء عهود، وأمراء، بل وزعيم فرنسا الحرة الرئيس ديجول نفسه، هذا فضلًا على زعماء الحركة الوطنية العربية من أمثال بورقيبة، والخطابى، واللاجئين السياسيين الكثيرين.

فشل المسلسل فى أن يقدم صورة كل هذا، وانشغل انشغالًا تامًّا بمحاولة إعطاء دور بطولة ملكية لبعض الفنانات من خلال قيامهن بأدوار الملكات والأميرات، وقد رسم المسلسل لهن أدوارًا سطحية تافهة، تعنى بلمعان الفساتين، وبارتفاع الصوت، وبسوقية الألفاظ إلى الحد الذى أجاد وصفه الأستاذ أنيس منصور حين علق على المسلسل بأنه كُتب بشىء آخر غير القلم.

(٥)

والواقع أن المسلسل كان بمثابة جرس إنذار منبه إلى خطورة رؤيتنا إلى تاريخنا، فإذا كان الأمر فى التعامل مع تاريخنا على النحو الذى عبر عنه المسلسل فما أسهل أن يقرأ كل مَنْ تسول له نفسه ملايين الصفحات أو عشرات الصفحات، وليس هناك فارق كبير بسبب هذا العدد

إذا كانت الرؤية التاريخية قاصرة إلى هذا الحد، مادام الأمر أمر اقتناص وقائع مروية بأى طريقة لتكون سلسلة من وقائع متتالية تصنع مسلسلًا.

(٦)

أما إذا كان الأمر أمر تصوير شخصية اعتلت العرش فى السادسة عشرة، ومارست الحكم فى السابعة عشرة ونصف، واستطاعت تسيير الأمور بقدر كبير من السيطرة طوال هذه المدة متمكنة من اللعب على تناقضات مصالح الوفد، والحركة الوطنية، والأحزاب المعارضة الصغيرة، والمحتل الأجنبى، والقوى الخارجية المتعددة الغاربة والصاعدة، على حد سواء، فإننا نصبح أمام شخصية جديرة حقًّا بالدراسة والتقييم الصحيح، لا بمجرد التعاطف مع وطنيته التى شوهت صورتها كثيرًا من قبل، أو مع كراهيته للإنجليز، أو التعاطف مع عدم شربه للخمر، أو التعاطف مع مصيره القاسى.

ولست أيضًا من الذين يتبنون وجهة النظر القائلة بأن فاروق قد تحول فجأة أو مرَّ بتحولات فجائية، وإنما كان تاريخه كله تعبيرًا عن نمو طبيعى، وكما أنه فى بعض الأحيان كان ارتقاء، فإنه فى بعض الأحوال الأخرى كان الأمر أمر شيخوخة مبكرة، أو يأسًا دافعًا إلى ترك المواجهة، أو استعجالها، أو نقلها إلى ميدان آخر.

ولست أيضا من الذين يبالغون فى أدوار شخصيات مؤثرة عليه، لا فى حضورها، ولا فى غيابها، ودليلى على هذا أن بعض الشخصيات البارزة جدًّا قد غابت عن فاروق أكثر من عشر سنوات، دون أن تظهر حاجته إليها، والأمر طبيعى، فقد كانت مصر حافلة بالكفاءات، وكانت كل مواقعها المتقدمة لحسن حظها مشغولة بالكفاءات، وكان كثيرون قادرون على أداء الأدوار التى نسبت لهم، فهى فى واقع الأمر أدوار نفسية وتاريخية تتكرر فى كل عصر، وليست أدوارًا خاصة بفاروق، ولا بعهد فاروق.

ومن الظلم لمصر فى عهد فاروق أن نسقط عليها إحساسنا ببعض القصور الفادح فى بعض الكفاءات فى الوقت الراهن، أو بوصول شخصيات هلامية إلى مواقع متقدمة من دولاب العمل الحكومى.

(٧)

وإنى ألخص هنا مأزق هذا المسلسل فى قصة شهدتها بعينى لسيدة كانت تكتب مسلسلًا تاريخيًا، وكان كل الناس يعرفون ذلك من كثرة حديثها فى كل صالون عن جهدها، وجلست قريبًا منها وهى تتحدث إلى أساطين فى العلم والفكر، وهى تتصور نفسها مرجعًا، ويحاول بعض هؤلاء أن يعلموها، فتسارع بالرد بما قرأته من معلومات تافهة، وروايات متهافتة، مستندة إلى إطار عمومى يبدو متماسكًا.

وسرعان ما غير الحاضرون فى ذلك الصالون موضوع الحديث إلى شىء آخر يخلو من الادعاء، وسألنى صاحب البيت فى ذلك اليوم برفق شديد: لماذا لم تعط هذه السيدة درسًا على طريقتك الحاسمة المهذبة؟ قلت: يا سيدى إنما يستحق الدروس الذين ينتظمون فى الدراسة أيًا كان موضعها فى مدرسة أو بيت، لا الذين يرفعون فى وجهك شهادة مختومة بأنهم راجعوا معلوماتهم القاصرة!!

(٨)

وعن خبرة شخصية فإننى أستطيع أن أقول: إن كل النتائج التى انتهى إليها المسلسل فى تصويره للشخصيات لم تصدر إلا عن قصور الرؤية التاريخية لكاتبته، والمجال متسع لضرب أمثلة على هذا القصور، وليس هذا المقال مجالًا لاستعراض رؤيتى المتواضعة لهذه الأمور، وقد قدمتها بتوسع شديد، كما قدمتها بتفصيل، ودقة، واستشهادات كثيرة ومتنوعة فى كتابَىَّ «على مشارف الثورة»، و«فى كواليس الملكية».

وفى هذين الكتابين أوردت ما وصل إليه السابقون من أحكام متزنة قامت على دراسات مقارنة للنصوص المتاحة عن هذه الفترة التى أجادت تصوير فاروق ملكًا يعيش فى مصر بوجدانه على الدوام، بل وبجسده أيضًا، وهو الذى لم يتركها طيلة حكمه إلا فى زيارات خارجية محدودة، لم يستغرق مجموعها كلها شهورًا قليلة، ولم تجنح هذه الكتابات إلى تصوير فاروق موظفًا كبيرًا يتحكم فيه المندوب السامى، ولا طفلًا صغيرًا يتحكم فيه رئيس ديوانه.

(٩)

والواقع أن فاروق كان يسمع الهتافات ويتصور نفسه - بالحق أو بالباطل - رجل دولة، فضلًا على أنه ملك.

ومع أنى لا أنكر أن فى المسلسل إيجابيات إخراجية وتمثيلية كثيرة جدًّا، وأن فيه أداء متميزًا، وروحًا لا تخلو من وطنية وقومية نفخر بهما، لكنى لا أنكر أيضًا أنه كان من الممكن أن يكون العمل أفضل من هذا بكثير لو احتشد له معدوه.

بيد أن لغة المسلسل كانت مزعجة لى إلى أبعد الحدود، وقد كنت فى وقت من الأوقات فى انزعاج شديد من عبارة قرأتها لجان نويل جانينى، مدير المكتبة الوطنية الفرنسية، علق فيها على بعض المشاهد التى أداها الممثل الكوميدى بوب هوب على مسرح الشانزليزيه لحساب التليفزيون الأمريكى فى الاحتفالات بمرور قرنين على الثورة الفرنسية، حيث وصفها بقوله: «انطوت سوقيتها البادية على أكثر العبارات فظاظة وابتذالًا».

وما زلت أذكر أننى صعقت لعبارة كهذه ترد فى مقال هكذا.

ولما شاهدت «فاروق» عرفت كم كان يجب على أن أصعق لكثير من اللقطات، ومنها لقطة الملك فاروق وهو فى العشرين يخاطب والدته عن شائعة سمعها عنها، كما لو كان قوادًا محترفًا، وكما لو كانت والدته عاهرة تعمل لحسابه، ولا ينبغى لها أن تمارس شيئًا من وراء ظهره فحسب، وكأن الجرم فى غياب الاستئذان، لا فى الفعل نفسه.

(١٠)

وعلى هذا النحو كانت تدور مناقشات فاروق مع أسرته الملكية، وهو الأمر الذى يدلنا التاريخ الاجتماعى والخلقى الذى لا يزال شهوده على قيد الحياة أنه لم يكن من الممكن أن يحدث فى أى بيت مصرى فى تلك الحقبة، وإن كان من السهل الآن أن نتصور أنه يمكن حدوثه الآن بين زوج وزوجة، لا بين ابن وأم.

الفصل الثالث

فى خيمة القذافى
رفاق العقيد يكشفون خفايا عهده
كتاب الأستاذ غسان شربل

(١)

هذا كتاب يدل عنوانه بدقة على محتواه، وإن كان موضوعه أكبر من أن يحيط به كتاب واحد أو شهادة خمسة فقط من أقطاب عهد كامل، فالقذافى حكم أكثر من أربعين عامًا كما أنه مهد لوصوله إلى الحكم مع هؤلاء الذين يروون قصتهم معه على مدى سنوات لا تقل عن الست، وهكذا فإن موضوع الكتاب يستغرق خمسين عامًا كانت حافلة بالإثارة فى أقصى وأقسى صورها، ويبدو أن العصر الحديث لم يعرف إثارة مثل تلك التى عاشها مع معمر القذافى، وأحلامه وطموحاته وتصرفاته وتحالفاته وانقلاباته وصداقاته وعداواته، وقد كان الناس فى عصر من عصور القذافى المتوالية يظنون أن الرجل لم يرزق بأولاد فإذا بهم بعد حين قليل يكتشفون أنه كان محظوظًا فى عدد الأولاد الذين أنجبهم وإن لم يكن محظوظًا بالطبع فى مستواهم السياسى والفكرى والأخلاقى على نحو ما يكشف الكتاب النقاب عنه، كما كان الناس يعتقدون أن القذافى اتبع أسلوب عبد الناصر فى التخلى النهائى عن زملائه بحيث لا يعود إليه من تركه منهم فإذا بهم يكتشفون أن كل زملائه عاشوا قريبا منه بعد أن تباعدوا عنه مرة واثنتين باستثناء من تمكن القذافى من تصفيتهم جسديًا.. وكان الظن أن الانقلابات التى قامت ضد القذافى تم تصفيتها عسكريًا على نحو ما حدث مع أقرانه من الزعماء العرب (ناصر وصدام والأسد وعلى عبد الله صالح وعارف.. الخ) فإذا بنا نكتشف من خلال هذا الكتاب

أن بقاء القذافى وإحباط الانقلابات كانا متعادلين!! وأن إحباط الانقلابات ضد القذافى اعتمد على السياسة والخداع والمناورة، أكثر مما اعتمد على السلاح أو المعركة أو المواجهة.

(٢)

يعرض كتاب القذافى شهادة الرجل الثانى عبد السلام جلود فإذا بنا نكتشف أن جلود كان أكثر حظًا من الرجل الثانى فى نظام عبد الناصر، أى (عبد الحكيم عامر) فقد عاش جلود حتى تحققت شماتته فى القذافى وشارك فى صنع هذه الشماتة حين وفرت له ثورة ليبيا فى ٢٠١١ فرصة الانشقاق على القذافى وتوجيه ضربة معنوية كبيرة لهذا النظام الذى كان حريصا لسبب أو آخر على الاحتفاظ بجلود فيما يشبه الإقامة الجبرية.

والحق أنه لولا ذكاء الأستاذ غسان شربل وقدراته الصحفية المميزة وثقافته التاريخية الواسعة ما كان ممكنا لهذا الكتاب أن يضم هذه الوثائق الدقيقة فى تصويرها للواقع وفى سردها لأحداث التاريخ، فمن حسن الحظ أن غسان شربل نفسه عاصر كثيرا من أحداث القذافى إن لم يكن قد عاصرها كلها، وقد استمع إلى ما كان يدور حول هذه الأحداث من دعاية فجة أو دعاية سوداء، واستطاع حتى من قبل أن يجلس إلى محاوريه أن يكون فكرة مبدئية عن «الصواب» أو «الحقيقة» فى كثير من الأحداث التى سيطرت المبالغات على تصويرها وروايتها.

(٣)

كذلك فإن الأستاذ غسان شربل يعطى كل ذى حق حقه، وهو على سبيل المثال يثمن دور عبد الرحمن شلقم الذى كان مندوبا دائما لليبيا فى الأمم المتحدة حين قامت الثورة وقد شغل من قبل مناصب كثيرة فى نظام القذافى، وقد نجح هذا الرجل فى نصرة الثورة الليبية بطريقة نادرة الذكاء حيث وافق وهو المندوب الرسمى لليبيا فى مجلس الأمن على القرار الذى مكن المجتمع الدولى من أن يقتلع معمر القذافى بعد حين، وقد حرص عبد الرحمن شلقم على أن يتكتم مشاعره حتى استطاع أن يمرر القرار لمصلحة الشعب الليبى وثورته، وبعدها وليس قبلها، أعلن انشقاقه على القذافى، أمام العالم والمجتمع الدولى بأسره.

وربما كان لعلى التريكى موقف مهم أيضا فى تسهيل الخلاص من معمر القذافى.

أما عبد المنعم الهونى الشريك البارز فى الإعداد والتحضير لما يسمى بثورة الفاتح من سبتمبر فقد عاش حياته فى شد وجذب مع الزعيم وقضى فترات طويلة تحت المطاردة والتعقب لكنه لسبب أو لأخر ربما كان اليأس، وربما كان ما تجلى للأبصار من قابلية القذافى ونظامه للخلود والاستمرار فى مشروع دولة قذافية يتوارثها الأبناء.. ربما لهذا أوذاك عاد الهونى ليعمل تحت إمرة القذافى متصالحا ومصالحا على أن يقيم فى القاهرة وأن يكون ممثلا للقذافى فى الجامعة العربية.. ومن الطريف أن الفرصة قد واتت عبد المنعم الهونى لينتقم من القذافى ولينضم إلى الشعب وليعلن الانشقاق على النظام الليبى بعد اندلاع ثورة ٢٠١١.

(٥)

أما نورى المسمارى فقد كان الأقرب إلى التفاصيل التى أحاطت بكثير من المؤامرات المبكرة لنظام القذافى، والمؤامرات المتأخرة أيضا، بل ربما كان حظه مع المؤامرات المتأخرة أكبر بكثير من حظه مع المؤامرات المبكرة، وقد أورد تفصيلات مهمة عن مغامرات القذافى العاطفية، وعن تجاوزاته الأخلاقية، كما روى بكل وضوح خيوط صنع مؤامرات اختفاء الإمام موسى الصدر وتفجير طائرة لوكيربى وما إلى ذلك من معارك القذافى مع مجتمعات الشرق والغرب على حد سواء.

(٦)

وعلى الرغم مما أحاط به غسان شربل من التفاصيل فإنه كان حريصا كل الحرص على أن تستفيد الإنسانية من تفصيلات أكبر لا يتيحها إلا الإبقاء على القذافى حيا، وكأنما كان القذافى سيبوح!! بما نريد أن نعرف أصله وفصله وربما أختلف مع الأستاذ شربل فى هذه الأمنية التى لا أظنها قابلة للتحقيق وإن كنت أشاركه الأمل فى تحقيقها فى يوم من الأيام عبر شهادات أخرى وروايات متعددة للحقائق.. ومع هذا فإنى أكاد أغبط الأستاذ غسان شربل على تلخيصه الذكى لحياة القذافى على نحو دقيق حيث يقول:

«كان القذافى مستبدًّا وقاتلًا كبيرا. لكن ذلك لا يبرر أبدا الطريقة التى استخدمت فى قتله. كان

من مصلحة ليبيا والمنطقة توفير محاكمة عادلة له وتركه يروى قصته وما ارتكبه فى الداخل والخارج. ثم إنه لا يكفى شطب المستبد لتنعم بلاده بالحرية والديمقراطية. تكشف النتائج الأولى لـ «الربيع العربى» أن المرحلة الانتقالية ستكون طويلة ومؤلمة ومكلفة وإن اختلفت حدتها باختلاف المسارح وظروفها. إن قوى جديدة تخرج من صناديق الاقتراع. تيارات إسلامية لم يسبق أن امتحنت فى موقع القرار. ستجد هذه القوى نفسها أمام أسئلة جديدة وتحديات جديدة تتعلق بتداول السلطة والاقتصاد والموقف من الأقليات وحقوق المرأة والحريات الشخصية. ستجد هذه القوى نفسها ترتطم بعالم لا يمكن إعادته إلى قرون مضت ولا يمكن معالجة مشكلاته بوصفات قديمة. وأخطر ما يمكن أن يحدث هو أن يتخلص بلد من استبداد رجل ليسقط تحت استبداد جماعة أو فكرة.

(٧)

قبل هذا فإن غسان شربل يفسر اندفاعات الزعيم القذافى فى ضوء ما آلت إليه شخصيته مع مرور الأيام رغم الإنذارات التى تلقاها فيقول:

«لم يتعظ المستبد العربى من مصير المستبد الرومانى (أى تشاوسيسكو) الذى سقط برصاص ذلك الربيع الذى هب على أنظمة أوروبا الشرقية بعدما سقط جدار برلين وتركها عارية أمام الرياح وأمام شعوبها».

«يفرط المستبد العربى فى الثقة بنفسه وبجلاوزته وبآلة القتل التى يعتبرها وسادته الذهبية. موسم القتل مفتوح. يلتهم القائد مجلس قيادة الثورة. يلتهم رفاقه. يفسدهم ويطوعهم ويحولهم من رفاق إلى عبيد. ومن يتردد فى الانحناء تدهسه شاحنة مسرعة أو تنخره رصاصة أو يدور السم فى دمه. وفى ظلام السجون تتعفن أجساد كثيرة وتتزين الجدران بالدموع والصرخات مع اعترافات بجرائم لم ترتكب».

(٨)

ويتحدث غسان شربل عن نظرية الرجل الواحد الملهم الأب بعبارات بليغة ومؤثرة فيقول:

«لا تتسع البلاد لأكثر من رجل إنه القائد الملهم. العلامة الأب الحنون. صاحب الرؤية الثاقبة. والقبضة المشعة. حارس التاريخ. المؤتمن على الحاضر. الممسك بمفاتيح المستقبل. رمز الكرامة والعنفوان. موزع الخبز والأحلام على الرعية. موزع الرعب وولائم الصمت الطويل. هذه بلاده وهو يملك كل شيء فيها. الأرض والغيوم التى تمر فوقها. الآبار والقبائل المبددة على جوانب فوهاتها. ولهذا لا يرف له جفن، يستبيح الأرض والكرامات والثروة ويغتصب النساء أيضا. إنه الرجل الوحيد. إنه المغتصب الكبير».

.. حقا وصدقا.. كان معمر القذافى بمثابة المغتصب الكبير.

■ ■ ■

الباب الثانى

تضافر المعرفة والتجربة

الفصل الرابع

مذكرات آخر اليساريين النبلاء

الأستاذ محمد العزبى

(١)

هذا كتاب ينحاز انحيازًا لا لبس فيه إلى الحرية فى صورها المتعددة.. البسيطة والمركبة.. الإنسانية والطبيعية.. الفكرية والسياسية، يتألم لفقدانها، ويعبر فى قوة عن تعاطفه مع مَنْ يفقدها، كما يعبر فى قوة لا تقل ضراوة عن احتقاره للذين يتسببون فى مثل هذا الجرم المقيت، ويدور الكتاب على تأكيد هذه الفكرة فى كل فقرة من فقراته بطريقة فنية مقتدرة، لكنه مع هذا يعبر عن المعنى بكل وضوح فى بعض الفقرات القوية.. ومن هذا قوله:

«أعترف بأن بى ضعفًا شديدًا تجاه الذين حرموا من حريتهم، دون أن يدروا ما هى تهمتهم، أو بعد أن لُفقت لهم التهم المناسبة، وبى ضعف شديد تجاه الذين حرموا من أن يقولوا كلمتهم، فماتت الكلمات على الشفاه، وبى شغف شديد بالحرية: حرية الخبز، وحرية الإنسان، وأنا قد عرفت الظلم، ودخلت السجن، وعانيت حتى من حق الشكوى والابتهال إلى الله، لقد سألونى مرة: لماذا أنت كذلك؟ فقلت فى براءة: لأننى كذلك، وكانت كذلك هى جريمة لا تغتفر!!».

«الذين وجدوا أنفسهم فجأة فى ضياع الشارع، أنا مع عودتهم، والذين وجدوا أنفسهم فجأة فى ظلمات السجن، أنا مع حريتهم، والذين ماتوا من أهوال الجبروت، أنا مع إعادة تقديرهم».

(٢)

أما أقوى انحيازات محمد العزبى إلى الحرية فتأتى من إعجابه بتعبير الشباب المصرى عنها، وقد خصص لهذا المعنى فصل «لا تطفئوا الشموع»، فى آخر كتابه، وفيه يقول:

«أرى أحمد حرارة وقد فقد عينيه قربانًا للحرية، بينما الخزى فى عيون الذين أرادوا أن يطفئوا نور الثورة بنار الحقد.. أكثر الجميع إصرارًا، فماذا يجديه ما قيل من أنه عرض عليه منصب وزير؟ وهل حقًّا يرى الوزراء تحت أقدامهم؟».

«عشرات العيون ضاعت، فأصبحنا نرى أكثر وضوحًا».

«أرى سميرة الشجاعة وقد جعلتهم فى خزيهم غارقين، وما رد الفعل لحكم المحكمة فى قضية كشف العذرية إلا مكابرة، وأى كلام، قال الحكم مايلزمناش!!».

«وست البنات التى قاومت حتى تعرى جسدها، فكان فضيحة للأشداء!! وأصبحت صورتها فى العالم كله رمزًا لكل معانى العزة، أو أنه الانحطاط، وما رد الفعل الطيب لمن عرضوا الزواج بها سوى كلمة تقدير، فلو أنها شاءت لتمناها رجال مصر جميعًا».

«وهبة وغادة والأخريات، كلما استمعت لمن باع قلبه ولسانه ليقول: همه إيه اللى وداهم هناك؟».

«جلسنا بجوار المدفأة.. وبناتنا وشبابنا فى الميدان».

«أما الشهداء فيحلقون فوق المكان، فوق مصر، يبتسمون ويحولون دون إطفاء الشموع، فاليوم مثل كل الأيام حتى يتحقق النصر.. فهل يتأخر؟!».

«عيد ميلاد لم تشهد مثله البلاد».

«النور لونه أحمر.. والصمت كأنه هدير».

(٣)

إن الحرية عند محمد العزبى لا تقف عند حدود حرية الرأى، والدفاع عن أصحاب الرأى

الذين يدفعون ثمن إيمانهم بمعتقداتهم، لكنها تتعدى هذا إلى الآفاق الأرحب للحرية، إنه مع الحرية كحق من حقوق الإنسان، تلازمها حقوق أخرى، كالاحترام، والإنسانية، وهو لهذا ينتقد بكل وضوح اللعنة التى تصيب المسئولين وتجعلهم يتغاضون عن قسوة حراسهم على الجماهير، وهو فى حديث عابر من أحاديثه الهادفة الذكية التى يبدو فيها إنسانًا مكنته الثقافة من أن يتمتع بالبساطة مع الذكاء، ومع الحكمة، ومع الحنكة شأن كل أصحاب القلم والفكر الذين ترتقى بهم ثقافتهم:

«... فرحت منى الشاذلى، وانفرجت أساريرها مندهشة لأن وزير (الداخلية) وصل بأقل حرس.. تقدر المذيعة اللامعة أفراده بمن كانوا فى صحبة الوزراء العاديين سابقًا.. نعرف قبل أن تعترف بأن وزير الداخلية جاء إلى الاستوديو حتى قبل موعده».

«فى البال هيلمان حبيب العادلى.. ترى كيف كانت إجراءات لقائه وحراسته، بل ورؤيته».

(٤)

ويقدم محمد العزبى النقيض:

«ولكن رئيس الوزراء، الذى لا هو جنرال، ولا متغطرس، أصابته العين بفعل حراسه القبضايات، مثلما أصابته بتصريحات المتحدث باسمه، مع أنه كاتب ومفكر وأستاذ (معتز بالله عبد الفتاح)».

«أثناء خروج الدكتور عصام شرف من قاعة المؤتمرات الكبرى، بعد أن ألقى كلمته أمام لجنة الحوار الوطنى – اسمها كذلك – تصرف حرسه بفظاظة، أو على طريقة «ريما» وعادتها القديمة، مما استفز الحاضرين، خصوصًا الشباب الذين تعالت هتافاتهم الغاضبة: داحنا اللى جايبينه.. إحنا اللى نحميه».

«زميلنا مجاهد خلف كان هناك، ولم أقرأ لغيره فى صحيفة أخرى قصة «حرس شرف»، أو صرخة رئيس رابطة المعوَّقين بالمحلة الكبرى، الذى أعلن أن الوصول للمسئولين ما زال صعبًا».

«لم نسمع بما فعله الحرس عندما أفطر رئيس الوزراء وأسرته فولًا وفلافل فى التابعى، فكانت قصة مصورة، قد تتكرر، إرضاء لسائر مطاعم الفول فى المهندسين، على الأقل، جاره الذى شارك رجاله – مثل غيرهم – فى الثورة، فارتفع شعار «آخر ساعة».. «بتاع مظاهرات مش بتاع ساندويتشات».

«سألت لميس الحديدى ببعض البراءة: هل يصحب الدكتور عصام شرف معه مصورًا فى كل همساته وتحركاته؟ يعنى فى المجلس ماشى، لكن عندما يذهب إلى التابعى الدمياطى ليأكل الفول، أو حين يتوقف ركبه لإنقاذ مواطن فى حادث موتوسيكل.. كله بالصور موثق!! أو ربما هى أجهزة الموبايل الحديثة.. أو بعض الظن إثم!!».

(٥)

ومن الطريف أن محمد العزبى فى معظم فصول كتابه يقدم لقارئه أفكارًا لمقالات خصبة، بل لكتب خصبة يمكن للقارئ أن يستمتع بها، وللباحث كذلك أن يفيد منها، وكأنما هو بأستاذيته يفتح الطرق أمام تلاميذه، ومن ذلك أنه فى أحد فصول هذا الكتاب يتحدث عن عمارة الأيموبيليا وغيرها من الكيانات التى تدور حولها الأحداث فى الروايات وفى الواقع على حد سواء، ومصدر الطرافة أنه فى الفترة التى كتب الأستاذ العزبى فيها مقاله هذا كانت باحثة مصرية قديرة هى الدكتورة سامية محرز (حفيدة شاعرنا الكبير الدكتور إبراهيم ناجى) قد أوشكت على الانتهاء من كتابها «قاموس القاهرة الأدبى»، الذى تناول هذا الموضوع بتوسع وترتيب من خلال أعمال الأدباء العرب، وهو كتاب قيم صدر عن «دار الشروق» فى وقت مواكب لصدور كتاب الأستاذ العزبى.

(٦)

ولعل هذا المعنى هو الذى دفع الأستاذ العزبى إلى أن يكتب أيضًا فصلًا بعنوان:

«تاريخ أقل قبحًا»: قراءة فى كف فندق!».

وفيه يتحدث عن الكتاب الذى استعرض تاريخ مصر من خلال تاريخ فندق شبرد القديم:

«عدت لقراءة كتاب يستهوينى منذ صدر قبل أعوام، وتجدد الشوق إليه هذه الأيام».

«لم يقدم صاحبه شريف عفت كتابًا قبله أو بعده، لعله يرى أن "تاريخ أقل قبحًا" يكفى».

«يحظى فندق شبرد القديم فى وسط المدينة باهتمام المؤلف، رمزًا للعمارة والسياحة، وملتقى الأحداث، بما يسميه «قراءة فى كف فندق»، لينتقل إلى القاهرة وكثير من الأبهة مع مهرجان افتتاح قناة السويس، وأفراح الأنجال أبناء الخديو إسماعيل، ولائم ممتدة، وعطايا وهدايا، ومشاركة من أبناء البلد الذين أقاموا أفراحهم فى التوقيت نفسه.. امتدت الأفراح أربعين ليلة».

(٧)

وشبيه بهذا المعنى العميق المعروض ببساطة ما يحرص الأستاذ العزبى عليه فى روايته لرحلاته الخارجية، وما زخرت به من اكتشافات واطلاعات، وهو فى عرضه الشيق يورد الرأى والرأى الآخر، على نحو لا نستطيع معه أن نهرب من الحقيقة الواضحة مهما أخفاها التمذهب، أو حب المذهب، أو الانحياز للأيديولوجية، ومن ذلك على سبيل المثال حديثه المبكر عن مدينة شنغهاى الصينية، وهو الحديث الذى يلخص فيه (من وجهتى نظر مختلفتين) التحول الذى أصاب المدينة تحت حكم الشيوعية، فيقول:

«... وانتقلنا إلى مدينة شنغهاى، ذات التاريخ الطويل، والشهرة العالمية، وكانت مرتعًا للعصابات وبنات الليل، قبل أن يستولى عليها الثوار، ويقولون: إنهم قضوا على الفساد، بالتثقيف السياسى، بينما يقول خصومهم: إنهم فعلًا قضوا على الفساد، ولكن فى ليلة واحدة، بأن جمعوا تجار الأفيون والعاهرات وألقوا بهم فى البحر، وانتهى الأمر».

(٨)

فى هذا الإطار الشيق يحكى الأستاذ العزبى ما لمسه من الفارق بين تعامل السلطة الجديدة فى الصين مع الأباطرة السابقين فيما بين أول زيارة للصحفيين المصريين بعد ثورة ١٩٥٢، وبين الزيارة التى كان هو نفسه واحدًا من أقطابها فى الستينيات، فنرى فى هذه المقارنة السريعة طبيعة التحول الذى ينشأ مع مرور الزمن:

«... أتيحت لنا فرصة لقاء آخر أباطرة الصين، ولعله الرجل نفسه الذى قدم قصته المخرج الإيطالى الشهير برناردو برتولتشى فى فيلم سينمائى عالمى يحمل اسم «الإمبراطور الأخير»، تم تصوير مناظره الخارجية فى أماكنها الطبيعية بالمدينة المحرمة، أين تلك التطورات مما سبق وحدث قبل زيارتنا بسنوات عندما ذهب إلى بكين بعد نجاح الثورة أول وفد صحفى مصرى، وكان يضم الأساتذة الكبار: عبد المنعم الصاوى، وإسماعيل الحبروك، وعلى حمدى الجمال، وصبرى أبو المجد، وإسماعيل الشافعى، وعبد العزيز عبد الله، إذ سأل الحبروك جادًّا عن اسم الإمبراطور الذى بنى قصرًا أعجبه، فارتبك المرافق وكان يتحدث اللغة العربية، وسكت قليلًا قبل أن يقول بحماس: إنهم الشغيلة يا سيدى، إذ كان اسم الأباطرة ممنوعًا وقتها».

«كان لقاء الإمبراطور الأخير مثيرًا من بدايته، إذ أخذونا إلى بيت يغلب عليه طابع الغرب، وكان الرجل يرتدى بدلة عادية، وليست بدلة ماو الشيوعية، وكانت زوجته تقدم لنا قطع الجاتوه الفرنسية، وبالشوكة والسكين، بينما يدور الحديث باللغة الإنجليزية، وكله تحية للثورة، وشكر على ما جاءت به من إصلاحات، واعتراف بما كان يدور من فساد، وعلى الرغم من أنها تمثيلية غير محبوكة، فإن مجرد رؤية الإمبراطور والحديث معه عمل صحفى تحمسنا له».

(٩)

والحق أن محمد العزبى لا يكف عن تذكيرنا بكل القيم الإنسانية الأصيلة من خلال الرحلة والفن، ذلك أنه يعشق هذه القيم ويستحضرها فى كل ما تقع عليه عينه، ولعل هذا هو ما دفعه فى ختام مقاله عن الفنان حجازى إلى أن يطلعنا على حقيقة أصل الكاريكاتير فى مصر:

«هل دخل الكاريكاتير مصر على يد الفنان التركى على رفقى؟ أم الأرمنى صاروخان؟ أم أنهم الفراعنة، حيث توجد بردية فى متحف تورينو بإيطاليا لفأر يجلس على كرسى الحكم، وقط يهوى على وجهه، يقولون: الفأر هو الحاكم الظالم، والقط هو الشعب.. إلى أن تقوم الثورة!!».

وفى حديثه عن «الرسوم الممنوعة» يذكر العزبى لبهجورى أنه رسم صورة عبد الناصر وهو يضع قبة البرلمان على رأس ابن البلد الذى يقول له: «أنت بتضحك علىَّ.. وبتلبسنى طاقية».

(١٠)

وتومض فى كتاب الأستاذ العزبى ومضات فلسفية قادرة على تصوير الأحوال والتقلبات المصرية على نحو تأملى عميق، يرى الحقيقة فى تجلياتها المختلفة، ويركز على جوهرها الذى قد ننشغل عنه، وهو على سبيل المثال يصف أحوال مصر بعد سنوات من القهر، فيقول:

«لماذا يحمل كل واحد جواز سفر، ويطلب تأشيرة خروج إلى المجهول؟ هل تغير الحال فأصبحنا ننعى الحظ بدلًا من أن نصنعه، ونبكى على الزمن بدلًا من أن نبدله، ونغش فى الامتحان بدلًا من أن نحفظ الدرس، ويتحدث الوزراء بدلًا من أن يعملوا، ونبحث عن الواسطة أفضل وأسهل وأجدع من الاجتهاد؟».

«هل كل الفرق أننا كنا نقبض ونصرف بالجنيه والقرش، فأصبحنا نجرى وراء الدولار والسنت، أم أن الفرق هو أن الإيمان أصبح أقل، وبعض مَنْ تبقى من المؤمنين تطرف وانحرف؟ لست أعتقد أن الفرق فقر وغنى، أو حتى سوء توزيع واستغلال، فأحيانًا كان ذلك دافعًا للتقدم ودليلًا على النجاح، هل هى الأخلاق أم فساد نظام التعليم، أم ثقب فى الأوزون؟ ربما كان خوفًا من مجهول، أو قلقًا وضيقًا مما يدور، أغلب الظن أنه الإنسان، ذلك الكائن الغريب الذى إذا أهين مات، وإذا أعطى فرصة أبدع، والإهانات على رؤوس العباد والأجساد بعضها يلهب الظهر بالسياط، وبعضها تكاد لا تراه، والإنسان إذا خاف مات».

«ما لنا ومال الموت وأنا أستعد أن أخطف رجلى خطوتين إلى عالم مجهول».

(١١)

وحين يتحدث محمد العزبى عن تجربة اعتقاله المفاجئة فإنه يحاول بكل ما أوتى من قدرة على التسامح والتسامى أن يتلمس فى التجربة بعض الجوانب الإنسانية أو الجديرة بمثل هذا الوصف، لكنه يجد نفسه عاجزًا عن المضى فى مثل هذا التصوير، إذ يتضاعف الألم وهو يذكر ظروف الاعتقال الذى لا يحدد له زمنًا دقيقًا (عن قصد)، ولا يجد له سببًا وجيهًا (عن

حقيقة)، ولهذا فإنه يكتفى بأن يسجل من تيار اللاوعى الذى لا يفتأ يراوده بعض ملامح الألم المتذكر، أو المستعاد تذكره عبر السنوات المتكررة:

«... كانت ليلة مثل كل الليالى، الأطفال هدَّتهم شقاوة النهار، أصغرهم مريض، لا يهنأ له نوم، فهو يسعل كل دقيقة، ومع ذلك يسود الهدوء المكان، ويسمح بالقراءة، ويسمح أيضًا بالتفكير، وكانت تلك هى الجريمة، فالتفكير جريمة لا تغتفر!».

«أطفأت النور، استلقيت فوق السرير بريئًا، نقيًّا، وقويًّا، لست أدرى كم ساعة نمت، قبل أن أجدهم أمامى.. ثلاثة لا أنسى وجوههم، ولا أسماءهم، أيقظوا كل مَنْ فى المنزل، الطفل الذى يسعل توقف سعاله من الدهشة، أو الخوف، أو الإزعاج، عاثوا فسادًا، مزقوا كل ورقة، رفضوا أن يشربوا الشاى، ساقونى معهم، لست أدرى إلى أين، وأغلق باب مسكنى من خلفى، لم أكن أدرى أننى سأفتقد المسكن، وأفتقد الطفل الذى يسعل، وأذهب إلى مكان بعيد لا ترى عيونى فيه شمسًا، وإن ألهبت حرارتها جسدى».

(١٢)

هل رأيت مثل هذا التصوير الدقيق للسجن الذى تلهب حرارته الجسد دون أن تراها العين؟ ولنقرأ صورة أخرى:

«كان الوقت فجرًا، وكان الفجر الأخير، الصحف وجدت طريقها إلى النور، فيها أخبار ومديح، وكل شىء يبدو على ما يرام، والحديث على صفحاتها عن «العدالة» لا ينقطع، وأنا أصدقها، وأنا أسهم فى صنعها، وأنا برىء وساذج ومغفل».

«انطلقت بنا سيارة تشق الطريق بسرعة، كنا كمن يسير فى مواجهة التيار، الجميع يبدؤون يومهم، ونحن نسعى لنهايتنا، الناس كلهم يتجهون إلى الحياة، ونحن نتجه إلى ما وراء الأسوار، شباب آمنوا بمصر وهاموا بها حبًّا، وضعوا فى زنزانات مغلقة، بلا جناية، ولا تحقيق، ولا حتى تهمة محددة، إنها اتهامات عامة فضفاضة يمكن أن ينطوى تحتها كل البشر، وعندما أحسوا أن التسميات التقليدية من إخوان، إلى شيوعيين، مرورًا بالوفديين، لم تعد تفى بالحاجة، اخترعوا

كلمة تصلح لكل زمان ومكان، وتحت اسم «النشاط المعادى» يمكن لمن يشاء أن يضع شعبًا بأسره فى السجون دون أن يكون مطالبًا ببرهان أو دليل».

(١٣)

ويصل محمد العزبى فى تصويره لقسوة الاعتقال الذى عاناه إلى تصوير هذه القسوة على مستواها الشعبى الذى تخطى حدود الفردية، وحدود التهمة، وحدود الشك، إلى اتهام الشعب بأسره، وما أدى هذا إليه من هزيمة محققة:

«وقادنى الطريق إلى داخل المعتقل، واحد من المعتقلات المتناثرة على أرض مصر، فيه وجدت كل البشر، يساريين ويمينيين، وبين بين، أبرياء وأبرياء، بعضهم برأته ساحات المحاكم فخرج من باب السجن، ليدخل من باب المعتقل، ولم ينج أحد!!».

يشير الأستاذ العزبى إلى الحقيقة المعروفة التى تقول بأن البراءة فى المحاكم لم تكن لتضمن الإفراج عن المعتقلين فى ذلك العهد، وإنما كانت تنزل بهم إلى درجة الاعتقال، الذى هو أسوأ من السجن الذى كان يضمن للمحكوم عليهم به بعض الحقوق!!

(١٤)

ثم يمضى محمد العزبى إلى الحديث عن الحجم المهول الذى بلغته الاعتقالات، وإلى أثرها المقيت الذى يراه سببًا مباشرًا لهزيمة ١٩٦٧.

«وإننى أتحدى لو كانت هناك أسرة واحدة فى مصر لم تعرف طعم المعتقلات فى يوم من الأيام، وهذه جريمة كبرى، وهذا هو إهدار للإنسان، وحصار له بسياج من الرعب، يجعله يؤمر فيطيع، ولكنها أيضًا تنال من روحه، عندما تستنجد به قد لا تجده، وهذا بعض ما حدث لنا فى يونيو ١٩٦٧، خاف كل الناس، فقطعوا ألسنتهم، مَنْ كان فيه عرق ينبض وضعوه فى السجن، أو خوَّفوه بالقضبان، لم يستطع أحد أن يشير إلى خطإ أو فساد، فاستشرى الفساد، بل ودافعنا عنه خوفًا أكثر منه تملقًا، وهكذا سرى السوس فى كل مكان، وكان ما كان يوم نادوا على الرجال، وعلى السلاح».

(١٥)

ويؤكد محمد العزبى على إيمانه المطلق بأن التسامح فى التعذيب يمثل جريمة:

«إن هذه الليالى السوداء فى حياة الإنسان المصرى لا تُنسى، ولا يصح أن يغفر لها أحد، أو يدعو لتبريرها، بل إننى أدعو لتحقيق شامل لمعرفة الذين قتلوا، وقُيِّدَ الحادث ضد مجهول، والذين اختفوا ولم يعرف أحد لهم مصيرًا، والذين تشردت أسرهم، وجاع أطفالهم، والذين ما زالوا يحملون على ظهورهم آثار السياط، والكى بالنار، والذين أهينت نفوسهم وتم تخريبها من الداخل».

«إنها جريمة أن ننسى كل ذلك، وأن نعفو بشهامة أو بتردد، ولابد أن يبدأ تحقيق عادل يتناول (الزبانية) الذين تفننوا فى ارتكاب الجرائم ضد الإنسان المصرى، ولا يقولن أحد: إنها كانت أوامر واجبة التنفيذ، ومَنْ ذلك الذى كان يملك رفض مثل تلك الأوامر التى قيل: إنها عليا، أو يملك الوقوف فى وجه تعليمات مسئول كبير كتب بخط يده عن واحد من الضحايا: «تُلفق له تهمة!!».

«لا يقولن أحد ذلك لأن هناك مَن اكتفوا بتنفيذ تلك الأوامر فى أضيق الحدود، وبكل ما يملكون من حب لمصر، بينما هناك مَنْ أجادوا تنفيذ الشر، وبالغوا فيه، وهناك مَن ابتدعوا واخترعوا، وتباروا فى الوصول إلى قمم من السوء والدناءة، لم يحلم بها حتى الذين أصدروا أوامر السجن والعذاب، وهؤلاء أسماؤهم معروفة، ومازالوا يمشون بيننا، وحتى لو غيروا مواقعهم، فإن مسئوليتهم قائمة، ويد العدالة يجب أن تمتد إليهم لتحاسبهم بالقانون، وبالحق».

(١٦)

وفى خضم حديث الأستاذ العزبى عن تجربة الاعتقال التى مر بها، يحدثنا صاحب هذه المذكرات حديثًا صادقًا عن شعوره تجاه «السلطة» التى كان من الممكن له أن يكون واحدًا منها، فإذا به واحد من ضحاياها، وهو يقدم حديثًا صادقًا إلى أبعد حدود الصدق، وشجاعًا إلى أبعد حدود الشجاعة:

«... ولعلى ندمت يومها لأننى لم أدخل التنظيم الطليعى الذى كان قد أقيم سرًّا بنظام الخلايا ليصبح حزب ثورة يوليو الحقيقى، وقد كنت على وشك أن أكون واحدًا من الصفوة المنتقاة الحائزة الثقة، إذ رشحنى مجهولون، وقال أكثر من واحد: إنه صاحب الفضل، ووجدت نفسى مدعوًّا للقاء فاروق القاضى فى شقته بوسط البلد، وقد كان زميلًا ودودًا وقريبًا من الثورة، على الأقل بحكم أن أخاه «جمال» عضو بتنظيم الضباط الأحرار، يقول لعبد الناصر: يا جيمى (إلى حين)، والرجل الثانى فى البوليس الحربى الرهيب».

«لم أكن مرتاحًا لهذا الترشيح، فلست أحب أن ألتزم بتنظيم، مفضلًا أن أملك حريتى، ثم إن لدى تحفظات على بعض مواقف ثورة يوليو، مع تأييدى لها».

«لماذا السرية ونحن تنظيم جمال عبد الناصر، ورأيت التنظيم الطليعى (حركات وتفانين)، غير أننى لم أستطع أن أرفض، لذلك حمدت الله أنهم هم الذين رفضونى بالتجاهل والبرود، وعدم دعوتى للقاءات أخرى».

(١٧)

ومن الطريف أن يحدثنا الأستاذ العزبى عن بحثه عن السبب فى رفضهم قبوله عضوًا فى التنظيم الطليعى:

«... ومع ذلك أردت أن أعرف لماذا حرمونى من ذلك الشرف، ولم أجد جوابًا سوى كلمات مبهمة عن عقاب أستحقه، لأننى كتبت اليوميات لأول مرة فى جريدة الجمهورية، باختيار رئيس تحريرها ومجلس إدارتها الجديد حلمى سلام، القادم من دار الهلال، وصاحب القرارات الشهيرة بالتخلص من عدد من كبار الصحفيين والكتَّاب، ونقلهم لمؤسسات أخرى، من بينها (باتا) للأحذية، أو الجمعيات الاستهلاكية».

«... فى الوقت الذى غضب فيه مَنْ رشحونى للتنظيم الطليعى، وكان كثيرون منهم ضحايا قرارات حلمى سلام، واعتبرونى خائنًا مارقًا عميلًا، أقل ما يفعلونه بى هو حرمانى من الجنة التى يقفون على بابها، فإن الغريب أن حلمى سلام نفسه كان عضوًا قياديًّا فى التنظيم الطليعى».

(١٨)

ويحفل كتاب الأستاذ محمد العزبى بالثناء على كثير من زملائه وشخصيات عصره، وإثبات المواقف المضيئة فى حياتهم، وهو يفعل هذا بسلاسة وحب شديدين، حتى ليبدو وكأنه استطرد إلى ذكر الأفضال والسجايا دون قصد، بينما هو فى واقع الأمر حريص على هذا النوع الجميل من المديح والتقدير.

وانظر إليه على سبيل المثال وهو يلخص مجد زميله المذيع حمدى قنديل فى قوله:

«... أصبح حمدى من نجومه (التليفزيون) فى الستينيات، وتركه بشجاعة وهو فى قمة مجده، بعد أن أثقله ضميره، فقد كان نجاحه ومقدرته سببًا فى اختياره ليحاور المعتقلين، أو بالأصح يستجوبهم، ثم يجرى «مونتاج» بيد خبيرة تحول الحوار إلى دليل اتهام يشوه صورة السجين أمام الرأى العام، أحس حمدى بعذاب لم يفصح عنه لأحد، ولم يكن أمامه إلا أن يعطى ظهره للشهرة والنجاح، وقد فتح الله عليه وأصبح خبيرًا عالميًّا فى شئون الإعلام والاتصالات، ونجمًا فى الفضائيات العربية، وتطهرت روحه من آثام الماضى التى لم يرتكبها».

(١٩)

كذلك تتجلى مشاعر الأستاذ محمد العزبى الإنسانية، حين يتذكر ما روى له عن والده الذى توفى بينما كان هو فى السادسة من عمره، دون أن يعرف ملامحه، لكنه يكوِّن له صورة مما رواه أهل قريته فى مركز المنزلة دقهلية، وما رواه له أحد أصدقائه الذين يعتز الأستاذ العزبى بذكر تفاصيل عائلته، وكأنها عائلته هو نفسه:

«وسمعت عنه (أى والده) من صديق عمره الذى عاش عدة سنوات بعده، فضيلة الشيخ محمد على سلامة، الذى أصر على أن يدفن والدى فى مقبرته، حسب وصيته، وهى اليوم على طريق صلاح سالم، فى مواجهة دار الإفتاء، بقبتها الخضراء، أو لعل لونها تغير بفعل الزمن، فلم أقم بزيارته منذ سنوات، لعلى أنتظر حتى ألقاه، اعتبرنا الشيخ «أبو سلامة» - كما كنا نناديه - والدنا، وأبناءه إخوة لنا: الدكتور الكيميائى محمود، والدكتور مهندس عزت، الذى أصبح

محافظا ووزيرًا أيام عبد الناصر، وابنه عمرو وزيرًا أيام مبارك، والدكتور طبيب رضا الذى هاجر إلى أمريكا، تزوجت شقيقتهم الوحيدة ابن خالتها، وجيه قطب، الذى تولى إدارة شركة «شل مصر»، وهو أيضًا ابن أحد مشايخ الأزهر وأساتذته، وشقيق وكيل النيابة اللامع فى ذلك الوقت أحمد مختار قطب، الذى حقق عددًا من القضايا المثيرة للجدل».

(٢٠)

ويتحدث محمد العزبى عن زميله صنع الله إبراهيم، بكل إعزاز وتقدير، كاشفًا السر عن بطولته الحقيقية والمبكرة:

«تمنيت أن أقرأ كل ما كتب وأثير عن أدب السجون فى الندوة التى أقامها مؤخرًا مركز البحوث العربية والأفريقية، وهى فى واقع الأمر دراسات وأبحاث وشهادات تستحق التسجيل والطبع والنشر، لأنها تاريخ وإبداع».

«وتمنيت أن يمتد فضح التعذيب فى المعتقلات، وما نتج عن المعاناة من أعمال أدبية وفنية ليشمل جميع الطوائف السياسية، فلا يقتصر على اليسار واليساريين، بل يمتد إلى الإخوان المسلمين وجماعات أخرى احتاروا فى تصنيف اتجاهاتهم، فأطلقوا عليهم اسم «النشاط المعادى»، ومن بينهم مَنْ أصدر أيضًا كتبًا عن تجاربهم المريرة».

«تميزت تجربة الروائى المبدع صنع الله إبراهيم، ليس فقط بأنه كان أول مَنْ أصدر «تلك الرائحة»، قبل ثلاثة وأربعين عامًا، وبعد خروجه من المعتقل بعامين اثنين، وفى وقت عنفوان السلطة، فلم تكن هزيمة يونيو قد وقعت، مما عرض الرواية للمصادرة، وقد أدخله القدر وانتماؤه السياسى السجن فى العشرين من عمره، شابًّا نحيلًا، يؤمن بالثورة والحكم والزعيم الذى وضعه ورفاقه وراء الأسوار، يدخل عالم القهر، ومن حوله رجال عظام من عمال وفلاحين وأساتذة جامعة ومثقفين، ومعه فى القيد نفسه شهدى عطية، فى حفل التعذيب الرهيب، اختاروا أربعة، هو واحد منهم، ربما لضعف جسده، وصغر سنه، لمشاهدة ألوان الوحشية التى يمارسونها، فانتابهم خوف وذهول، ولم تمض سوى فترة قصيرة على عودتهم لعنابر السجن حتى جاءهم خبر وفاة شهدى ورفيقه فى قيد واحد».

(٢١)

ويصف الصحفى الكبير صلاح منتصر بعض إنجازاته، فيقول:

«عرفت صلاح منتصر مبكرًا قبل أن تتفرق بنا السبل، يبقى الود عن بعد، أقرأ ما يكتبه كل يوم، وأتذكر مشاغباته مع توفيق الحكيم، ودوره صحفيًّا وصديقًا فى إنقاذ فاروق الفيشاوى من الإدمان، ورحلاته العجيبة، ولعلى أول مَن اشترى كتابه «رحلتى إلى آخر العالم»، وأول مَنْ قرأ كتابه الأخير «من الصعود إلى السقوط».

(٢٢)

كذلك يلخص الأستاذ محمد العزبى على طريقته قصة حياة الشاعر سيد حجاب، تلخيصًا رائعًا يبلور تلك الحياة كلها فى سطور معدودة، قبل أن يستطرد إلى تجربته فى تنظيم وحدة الشيوعيين، وما سببته له من آلام الاعتقال والتعذيب:

«عبقرى وجميل سيد حجاب، كنت أتمشى معه كل صباح، ونسمع من إذاعة السجن المفتوحة على راديو القاهرة «بنت اللذينة»، أغنية «ياما زقزق القمرى»، للشاعر الشاب، ولعلها كانت أول أغنية تذاع له، وكان صاحب «القمرى» يهز رأسه، لا أعرف، طربًا أم دهشة، فكيف يزقزق وهو مكبل بالقيود؟».

«درس الهندسة، أحب بحيرة المنزلة، دخل جامعة الإسكندرية، انتقل إلى القاهرة بجوار أخيه المهندس صلاح حجاب، انضم إلى سرب الطيور المغرد بالعامية الهادرة، أحب صلاح جاهين، وقدمه فى «شاعر جديد يعجبنى»».

«عندما تزوج عام ١٩٦٣ فنانة النحت السويسرية إيفلين بوريه، فوق سطح عمارة بشارع نجيب الريحانى، عاش حياة تواكب فكره، فكان السرير من أقفاص جريد مغطاة بالخيش والبطاطين القديمة، انفصل بعد ذلك عن زوجته، اختارت الحياة فى ريف الفيوم، وأبقى على ثوريته».

«دخل السجن فى ١٠ أكتوبر ١٩٦٦، وخرج بعد شهور بلا تهمة ولا سبب، ليصطدم بنكسة ١٩٦٧، فسافر إلى سويسرا، بعد أن خرج من زمن الزنازين».

«عاد بعد سنوات معدودة لينطلق فى سماء الفن والوطن، ويندمج بشعره وشخصه فى ثورة ميدان التحرير».

(٢٣)

أما تصوير محمد العزبى لحياة الأديب الأردنى غالب هلسا، فيأتى على نحو رائع ودقيق، يلخص الدراما الإنسانية كلها فى تعاقب سريع:

«جاء من بلده الأردن ليعتقل فى مصر فى زمن عبد الناصر، ويطرد فى زمن السادات، ويموت فى دمشق، ليعود مرة أخرى إلى مسقط رأسه فى تابوت، ثم عادت كتبه الممنوعة بعد سنوات يقرؤها الناس».

«عاش غريبًا.. ومات غريبًا، ولكننى أحسب أن أحلى سنوات عمره هى التى عاشها فى القاهرة مع رفاق الستينيات، بما فى ذلك شهور معتقل طرة».

«أحبه الجميع، وكانوا يداعبونه باسم الخواجة، ويرون السجن جميلًا بليالى الخواجة فى المعتقل، استمر على ولائه ومشاركته فى نضال الشعب المصرى، وسعى للتعرف إلى زعماء الحركة الطلابية، التى بدأت فى أعقاب نكسة يونيو، واشتعلت فى بداية السبعينيات، ومنهم أحمد بهاء الدين شعبان، وزين العابدين فؤاد، وسهام صبرى، وسمير غطاس».

«لم يكن كاتبًا كالآخرين، فهو الأردنى الذى يتحدث بلهجة مصرية، والأديب الذى تؤنسه لغة السياسة، والكهل الذى لم يتخل يومًا عن طفولته، رواياته، حياته، وبطله كان ظلاله، يكتب فيصل دراج فى مجلة الوسط عن الرجل الذى كان يكره الأماكن الضيقة، المبدع الذى أحب بغداد، وأخلص للقاهرة، واستظل ببيروت، ومات فى دمشق وعمره سبع وخمسون سنة، وقد كان يتفاءل بأن جده توفى عن مائة وخمسة أعوام، بقى جثمانه على حدود الأردن حتى أفرجوا عنه، وسمحوا بدخوله ليدفن فى قريته «معان»».

(٢٤)

ويلخص محمد العزبى قصة حياة الأديب يحيى الطاهر عبد الله، تلخيصًا رائعًا يلقى به فى وجه النظام والاعتقال والسجون:

«كان يحيى الطاهر الغائب الحاضر الأصغر سنًّا، وكاتب قصة مبشرة بمستقبل رائع، تميز بأنه يحفظ قصصه القصيرة عن ظهر قلب، ويُسمعها للحاضرين قبل أن يجد فرصة للنشر، آخر مَنْ ألقى القبض عليه، فتصوروا أنه الزعيم، مع أنه غلبان مثلنا جميعًا، مجرد طول لسان، وكان شعراوى جمعة يتحجج دائمًا بأن رأس التنظيم حر طليق هارب.. يقصد يحيى الطاهر عبد الله».

«مات الطاووس المشاغب أمير الحكى، ونديم الحى، الغماز، اللماز، الهجاء، الغضوب، المتشاجر مع ذباب وجهه، طفل البرارى، ابن الموت، الذى عاش دنياه دائمًا كأنه يموت غدًا».

«ألا يأتى على هذا الوطن يوم نجد أمامنا خيارًا رابعًا غير الموت، أو الهجرة، أو الزنازين؟!».

(٢٥)

كذلك يفعل الأستاذ محمد العزبى مع زميله الأستاذ محمد الخولى، المترجم الشهير، حيث يقول:

«محمد الخولى، مظلوم وظالم، فهو صديق ودود، لكنه كثيرًا ما يغيب عن الأحباب، وهو كاتب مستقيم فى عالم اختلطت فيه الألوان والمذاهب، ظلمناه لأننا لم نعرف قدره، وظَلَمَنَا لأنه لم يتمسك بحقه، فكانت هجرته إلى الأمم المتحدة كاتبًا وباحثًا وخبيرًا إعلاميًّا، توجت أعماله بجائزة الملك عبد الله بن عبد العزيز عن ترجمة كتاب «انهيار العولمة»، للباحث الأمريكى مارتن جاك».

«كان من نجوم إذاعة «صوت العرب» فى عصرها الثورى، ولكن دوره الأكثر أهمية كان فى تثقيف شباب العرب، وخلق كوادر تكمل المسيرة التى تعثرت».

(٢٦)

ويصف الأستاذ محمد العزبى صبرى العسكرى بأنه:

«... أحد فرسان الزمن الجميل الذين مهدوا الطريق لجيل جديد صنع ثورة.. تصدى

صبرى العسكرى بما يملك من حس أدبى، وكفاءة قانونية لقرار مصادرة «ألف ليلة وليلة» التى جمعت من الأسواق، وأودع ناشرها السجن، وحفظت شهرزاد له الجميل الذى لم يحفظه الكثيرون».

(٢٧)

ويتحدث عن الأستاذة سعاد منسى حديث تقدير وإعزاز، قائلًا:

«كانت سعاد منسى ثائرة بطبيعتها، شاركت فى حملة المطالبة بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ مع الإنجليز، وأضربت عن الطعام، مع أنها كانت فى بداية عملها الصحفى محررة بجريدة «المصرى» الوفدية، ورئيس الحكومة وقتها مصطفى النحاس باشا زعيم الوفد. وقفت إلى جانب البسطاء طول عمرها.. لم تتغير».

«أعود إلى أول لقاء معها، وكنت أعرف اسمها ونشاطها ومواقفها، ولا أتصور أنها تبدو بتلك الرقة والسماحة وهى تحمل دائمًا حقيبة فيها كل أوراقها وكتبها التى كانت تصدرها عادة على حسابها الخاص، عندما تعجز عن التعبير بالقلم عن أفكارها فى الصحف».

(٢٨)

وأخيرًا يصف الأستاذ العزبى الأستاذة نوارة نجم وصفًا دقيقًا وجميلًا حيث يقول:

«... لفت نظرى تلقائيتها، وجرأتها، وحسن تعبيرها عن جيل ثورة الشباب.. لها تجاوزات أغفرها لها، فأين ذلك مما فعله أبوها طول عمره، أو تكتبه أمها من طلقات حامية مباشرة على مَنْ لا تعجبها مواقفه».

■ ■ ■

الفصل الخامس

رحلة العمر

مذكرات السفير عبدالرؤوف الريدى

(١)

هى واحدة من أفضل المذكرات التى كتبها قادة العمل الدبلوماسى المصرى على الإطلاق، أقصد مذكرات السفير عبد الرؤوف الريدى، ثانى سفير لمصر فى الولايات المتحدة الأمريكية بعد عودة العلاقات بين البلدين فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣.

شغل هذا الرجل هذا المنصب طيلة ٨ سنوات (١٩٨٤ - ١٩٩٢)، كان فيها نموذجًا للإنجاز المبهر والعمل الدؤوب، وكان القريبون من مراقبة أحوال الدولة يظنون أن مصر سوف تستفيد منه فى هذا الموقع سنوات أخرى بعد بلوغه الستين، لكنهم - وأنا منهم - فوجئوا بالرجل يترك موقعه عند بلوغه الستين عامًا.

ولم يكن من الصعب فهم السبب فى هذا، وهو سبب معقد، لكن جوهر السبب يعود إلى قدرة الريدى ونجاحه وتفوقه، وهو النجاح الذى صب فى مصلحة نظام مبارك ومصلحة مبارك نفسه، وبالطبع فى مصلحة مصر وعلاقاتها الخارجية.

(٢)

وإذا كان هناك عشرة صنعوا مجد حسنى مبارك، فقد كان عبد الرؤوف الريدى واحدًا منهم

بلا جدال، وإذا كان هناك خمسة صنعوا هذا المجد فقد كان عبد الرؤوف الريدى واحدًا منهم، فى رأيى.

وربما يكمن الفارق بين الموقعين فى أن عبد الرؤوف الريدى نفسه كان سيفعل ما فعل، وسينجز ما أنجز حتى مع اختلاف من يشغل موقع الرئاسة، أى أنه لم يكن على علاقة بمبارك فيما قبل الرئاسة، ولم تكن علاقته به علاقة سابقة على وصوله إلى منصب السفير.

لكن الذى لا شك فيه هو أن الريدى كان أول من قدم لوطنه المناخ الذى حوله من وطن مدين بالدولار، إلى وطن ذى رصيد دولارى، قابل للتراكم، ولتكوين ما أسماه الرئيس مبارك فيما بعد «الاحتياطى».

وقد كان الريدى واعيًا كل الوعى للدور الاقتصادى للعمل الدبلوماسى، بعيدًا عن كل المصطلحات والمسميات، ذلك أنه كان ينظر إلى مصر على أنها شىء واحد، وعلى أنها والدته الحنون التى ينبغى عليه أن يوفر لها كل ما يستطيع توفيره، حتى لو لم يطلب منه ذلك أحد، وحتى لو لم يتوقع أحد منه ذلك.

(٣)

وهكذا قدر لهذا الرجل أن يسهم بالدور الأكبر فى إلغاء الديون العسكرية التى كانت مستحقة للولايات المتحدة على مصر، وأن يبدأ بنفسه المبادرة من أجل هذا الإنجاز، وأن يتولى هذا الإنجاز حتى النهاية، ثم إذا هو يمضى خطوات أخرى فى سبيل تحقيق إنجاز آخر فيما يتعلق بالديون المستحقة للدول العربية والأوروبية فيما عرف بنادى باريس، وإذا هو يخطو خطوة ثالثة فى الحصول لمصر على معونات أخرى عاجلة وآجلة، تقديرًا لموقف مصر من حرب الخليج.

أنجز الريدى هذا كله بينما هو يؤدى دوره بامتياز فى واشنطن، وبينما هو لا يبخل على غيره بالنجاح ولا بالتقدير، وفيما هو يدفع بمرؤوسيه فى مدارج الرقى حتى عرفنا منهم أكثر من وزير للخارجية فى فترة لاحقة.

(٤)

وقد تحدث الريدى فى مذكراته – التى أصبحت الآن بين أيدينا – عن تفصيلات هذه المعارك الدبلوماسية الاقتصادية بدقة وأمانة، وعرض رؤيته ورؤية غيره بتجرد وإنصاف، كما لخص فى هذه المذكرات كل المواقف المحيطة بكل إنجاز بفهم وتبصر.

ولم يكن الريدى بحاجة إلى مزيد من الدقة والأمانة والتجرد والإنصاف والفهم والتبصر كى يتحفنا بما نكتشفه فى أنفسنا من تقدير لدوره وجهاده ودأبه وإخلاصة وفهمه وذكائه.

على أن الريدى فى مذكراته لا يقف عند حدود ما أنجزه وهو على رأس الجهاز المسئول، لكنه يأخذنا منذ بداية هذه المذكرات إلى آفاق رحبة من تاريخ وطنه فى عهدى عبد الناصر والسادات، قبل عهد مبارك، راويًا دوره فى وسط المجموعة التى قدر لها أن تقود الدبلوماسية المصرية فى هذه الفترة.

(٥)

ونحن نعرف أن الريدى كان واحدًا من المقربين إلى محمود رياض وزير الخارجية (١٩٦٤ – ١٩٧١)، والأمين العام للجامعة العربية بعد ذلك (١٩٧٢ – ١٩٧٩)، وأنه اشترك معه فى حضور عدد من دورات الجمعية العامة للأمم المتحدة، كما حضر معه رياسة مجلس الأمن الدولى حين آلت هذه الرياسة لمصر فى الفترة التى شهدت أزمة خليج الخنازير بين كوبا والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية.

ونعرف كذلك من المذكرات أن الريدى عمل سفيرًا فى باكستان فى مرحلة مفصلية من تاريخ باكستان والمنطقة التى تتوسطها باكستان، حيث إيران من ناحية، وحيث أفغانستان والغزو السوفيتى لها من ناحية أخرى.

(٦)

ونعرف كذلك أن عبد الرؤوف الريدى حضر المعقبات الدولية لحرب ١٩٦٧ من خلال أكثر من موقع، وأنه حضر مقدمات هذه الحرب فى القاهرة فى قلب وزارة الخارجية، وأنه بكى

فى أثناء هذه الحرب، كما لم يبك من قبل، وأنه فوجئ بهذا الذى وقع من هزيمة لم يكن يتصور أنها بهذا الحجم.

نعرف هذا كله، ونعرف غيره، والغير كثير، بالتفصيل فى مذكرات الريدى، ونعرف كيف يمكن لإنسان عظيم مثله أن يواصل أداء دور ذكى من أجل خدمة وطنه دون أن يقيد نفسه بمجموعة أو بنطاق فكرى محدد للحركة.

نراه فى كل الذى أداه وطنيًّا من أولئك الذين بدؤوا حياتهم فى شبابهم منبهرين بأحمد حسين، وما كان أحمد حسين يمثله لمثله من الشباب الحر الأبىِّ الوطنى المخلص.

(٧)

نرى الريدى أيضًا واعيًا لقيمة الوفد إلى الحد الذى خبره بنفسه حين حاول أن يسير مع المؤرخ عبد الرحمن الرافعى خطوات قليلة فى قرية عزبة البرج، حين كان الرافعى يتابع معركته الانتخابية للفوز بعضوية مجلس الشيوخ عن دائرة فارسكور، وهى الدائرة التى كانت تمتد من شمال المنصورة وحتى البحر الأبيض المتوسط، فإذا بالجماهير المؤمنة بالحزبية الحقة لا تقبل من الرجل، مهما كان شأنه، فكرة الاكتفاء بالوجود المنجز فى العاصمة، وألَّا يأتيها إلا إذا حان موعد الانتخاب.

ويعطف والد عبد الرؤوف الريدى على ابنه بما يكفل له أن يفهم طبيعة السياسة والانتخابات منذ مرحلة مبكرة.

(٨)

نرى عبد الرؤوف الريدى فى مذكرات إنسانية وهو يقود خطواته بنجاح فى الدراسة فى دمياط الثانوية، ثم فى كلية الحقوق.

نراه وهو يتذكر تفصيلات الحياة الاجتماعية والحضارية وأسعار السلع وإيجارات الشقق، نراه وهو يعبر عن سعادته بمصر، وعن أسفه لما آلت إليه أحوالها فى كثير من الأحيان، وبخاصة بعد أن تقاعد فأصبح المشى فى الشوارع عذابًا.. إلخ.

ثم نراه وهو يتحول من العمل الدبلوماسى الناجح الذى وصل إلى قمته، إلى أعمال تطوعية أخرى فى مكتبة الجيزة، (التى سميت مكتبة مبارك) وسلسلة المكتبات التى تبعت لها وأنشئت على غرارها.

(٩)

فى كل هذا الذى يرويه أستاذنا الريدى بتدفق وتواضع نرى إنسانًا بمعنى الكلمة، يفرح ويحزن، وينهض ويمل، ويصعد ويهبط، ويعجب ويكره، ويتكلم ويصمت، ويفاجأ فى بعض الأحيان، ولا تعتريه المفاجأة فى معظمها.

نرى إنسانًا أجادت التربية الحقة صقل شخصيته فى البيت والمدرسة والجامعة وجامعة الحياة، ثم أتاحت له الحياة أفضل الحظوظ فى الزوجة الصالحة، والأصدقاء الحقيقيين، والأساتذة العطوفين.

(١٠)

ومع كل هذا نرى الريدى محظوظًا فى علاقاته بزوجته السيدة فريدة الوكيل، كما نراه محظوظًا فى علاقاته بعمر لطفى، السكرتير العام المساعد للأمم المتحدة، الذى مات فى أعقاب وفاة والده، والذى قدر له أن يصحب جثمانه إلى مصر، كما نراه محظوظًا فى علاقاته بمحمود رياض الذى عمل معه فى الأمم المتحدة، ثم فى الوزارة، ثم فى الجامعة العربية.

نراه محظوظًا فى علاقته ببلدياته محمد حسن الزيات، صاحب الفضل الأوفى على العلاقات المصرية الأمريكية، ونراه أيضًا محظوظًا فى علاقته بأحمد عصمت عبد المجيد، وإسماعيل فهمى، ومحمود رياض وعمر سرى، وكل من سبقوه إلى السلك الدبلوماسى.

كما نراه متميزًا فى علاقته بمن لحقوا به فى السلك الدبلوماسى من طبقة عمرو موسى، ونبيل العربى، وأحمد ماهر، وأبو الغيط، ومحمد العرابى، ومحمد كامل عمرو.

■ ■ ■

الباب الثالث

كتابة جديدة لتاريخ الإخوان

الفصل السادس

حسام تمام وأبوالفتوح

(١)

تجلت قدرات المؤرخ حسام تمام كأوضح ما تكون فى كتابته سيرة عبد المنعم أبو الفتوح، فقد نجح هذا الباحث القدير أن ينسج من وقائع رآها أو سمعها سيرة حياة تحتمل إضافات بديعة فى المستقبل، وانتبه فى ذكاء شديد إلى أنه يصنع نواة، ولا يصور حياة، ولهذا فإنه كان حريصًا كل الحرص على أن يجعل السيرة التى يصورها قادرة على استيعاب الأحداث التالية، مهما كان حجم هذه الأحداث، وكأنه أحس بأن عبد المنعم أبو الفتوح سيرشح نفسه لرئاسة الجمهورية بعد عامين من كتابة هذه السيرة الفتوحية.

رأى حسام تمام بثاقب نظره أن يصف عبد المنعم أبو الفتوح بأنه «شاهد على تاريخ الحركة الإسلامية فى مصر»، فيما بين ١٩٧٠ و١٩٨٤، وكأنما أراد حسام أن يجنب صاحب السيرة الادعاء بأنه كان قائدًا من قادة هذه الحركة، ومع هذا فإنه فى متن الكتاب يحرص كل الحرص على أن يقرر عقيدته اليقينية القائلة بأن عبد المنعم هو أبرز هؤلاء القادة بلا استثناء، وهو يعبر بطريقة مباشرة وبطريقة غير مباشرة عن عقيدته التى اكتسبها من خلال البحث الجاد، فيقول:

«إن أصعب ما تتحاشاه الحركة الإسلامية أن تدون تاريخها، وأصعب منه أن تكتبه فى حياة أصحابه، فساعتها تظهر الضغائن، وما تخفى الصدور، خاصة حين يجيب الشاهد عن الأسئلة الحقيقية، ويلتزم وجه الحقيقة، لا ما يريده الآخرون».

(٢)

وهكذا كتب حسام تمام، وكأنه كان يستشرف ما سوف يواجهه عبد المنعم أبو الفتوح فى ربيع ٢٠١٢، وهو أقسى ما يمكن لزعيم طلابى أن يواجهه، حين ينتقل إلى انتخابات رئاسية، على سبيل المثال.

(٣)

وفى كتاب سيرة عبد المنعم أبو الفتوح يسجل حسام تمام رؤيته لتاريخ الرجل بضمير المتكلم، وكأنما عبد المنعم هو الذى يكتب سيرته، ومن الحق أن نقول إن عبد المنعم لم يكن قادرا على أن يقدم سيرته على هذا النحو الذى قدمه حسام تمام، إذ كيف يمكن للإنسان حتى لو كان فيلسوفا مؤرخا وصاحب خيال أن يصور حياته من نسيج وراء نسيج وفوق نسيج وتحت نسيج على هذا النحو الذى صب فيه حسام تمام رؤيته لتاريخ الجماعات الإسلامية فى تاريخ شخص واحد هو صاحب السيرة.

بالطبع فإن هذا لا يقلل من قدر عبد المنعم أبو الفتوح، ولا من سيرته، إذا كتبها، كما أن هذا لا يعنى أن السيرة المقدمة شىء آخر غير السيرة الأصلية، لكن المعنى الذى أريد أن أثبته ولا أتجاوزه هو أن ضمير المتكلم فى السيرة كان أقل دقة من أن يعبر عن الصدق الفنى فيها ولها، كأنى أريد أن أقول: إن حسام تمام تنازل عما كان ينبغى عليه ألا يتنازل عنه، وهو أن يكتب الكتاب بضميره هو، كما كتبه بقلمه ورؤيته.

(٤)

ومع كل تقديرى للحرفية التى كوّن بها حسام تمام آراءه فى تاريخ الحركة الإسلامية فإنى أحب أن أقول – دون أن يعنى هذا انتقادًا أو تقليلًا من قدره –: إنه كان أقل دقة، فيما يتعلق بالحقائق التاريخية العامة والخاصة على السواء، ولست أدرى سببا لهذا إلا حرصه على أن يضع نسيجًا تاريخيًّا موازيًا لتاريخ الحركة الإسلامية يحاول أن يصالح من خلاله بين أبو الفتوح وجمال عبد الناصر على سبيل المثال، وهو أمر لم يكن مطلوبًا ولا لازمًا إلا للتعبير عن شعور

أبو الفتوح الدفين بالإعجاب بأداء عبد الناصر حتى وإن كان منتقدًا لسياسة ناصر وتوجهاته وقراراته ومجمل فترته.

ونحن على سبيل المثال نقرأ على لسان أبو الفتوح أن عبد الناصر كان «سبب نجاح زواج أبى من أمى، فقد كانت أمى من عائلة إقطاعية كبيرة قبل الإصلاح الزراعى، ولم يكن ممكنًا أن يقوم بينها وبين عائلة والدى البسيط علاقة حقيقية لولا قانون الإصلاح الزراعى، لقد تضررت عائلة أمى كثيرًا من إصلاحات عبد الناصر، فأصبحت متوسطة الحال، لكن أحدًا من الذين تضرروا لم يكن قط يجرؤ على الكلام فى هذا الأمر أو انتقاده».

(٥)

ربما كان من حق أى قارئ عادى أن يتعجب من هذه الصياغة المتناقضة فى هذه الفقرة، وفيها ما فيها من ظلم للأب وللأم معًا، كما أن فيها ظلمًا من صاحب السيرة لهما ولنفسه، لكن الأصعب من هذا كله أن الحقيقة تقول: إن عبد المنعم ولد ١٩٥١، وكان أوسط إخوته، أو الثالث منهم على وجه التحديد، وأن زواج والديه تم ١٩٤٤، أى أن الإصلاح الزراعى لما حدث كان هذان الأبوان قد أنجبا عددًا من الأبناء يستحيل معه التفكير بصورة أخرى كالتى أوحى بها حديث صاحب السيرة الذى كتبه حسام تمام على هذا النحو من الاستسهال الممل، والتقريب المخل، وظنى أن هذا الذى صاغه حسام تمام لم يكن له أى وجود فى الواقع، وربما لم يكن له وجود عند عبد المنعم نفسه.

(٦)

وتحفل المذكرات بكثير من الأحكام التى لا تزال بحاجة من عبد المنعم إلى كثير من المراجعة، وإعادة الصياغة، وانظر على سبيل المثال إلى حديثه عن الأستاذ العالم الدكتور محمد عبد المنعم أبو الفضل، حين يختمه بقوله: «ولكنى قبلت إخوانيته ورفضت صوفيته».

كذلك فإنه يشير إلى كثير من الوقائع بطريقة مخالفة للحقائق الثابتة، ومنها على سبيل المثال إشارته إلى أن عبد الناصر استعان بعبد العزيز كامل وزيرًا، فى بداية الثورة، مع أنه لم يصبح وزيرًا إلا فى ١٩٦٨، بعد الهزيمة.

ولست أدرى سببا يجعل عبد المنعم يسمى مسجد شيم الشافعى الذى يقع فى مدخل كلية طب قصر العينى باسم «الشافعى»، وكأنه يبخل على صاحبة المسجد وأسرتها بنسبته إليها، مع أنه يعرف أن أسرة زميلته قد أقامت هذا المسجد تخليدا لذكراها بعد أن توفيت فى حادث سيارة حين كانت الطالبة المثالية للكلية.

(٧)

ومن العجيب أن يتحدث حسام تمام (صفحة ٣٥) عن قانون تطوير الأزهر ١٩٦١ على أنه قانون إصلاح الأزهر (١٩٦٠)، مع أنه يعرف الفارق الرهيب بين الكلمتين والتاريخين، وكأنه يزايد على الحقيقة بما لم يزايد به نظام عبد الناصر نفسه.

(٨)

ويؤثر عبد المنعم أبو الفتوح أن يرجع السبب الأكبر فى انتمائه الإسلامى إلى الشيخ محمد الغزالى، على الرغم من التأثير الجوهرى والحقيقى للدكتور محمد عبد المنعم أبو الفضل، مع أننا نعرف بالبديهة أن التأثيرات الفكرية لا تأتى إلا بعد التأثيرات المتعلقة بالانتماء، وكأنما يريد صاحب السيرة أو كاتبها أن يجعل لتوجهاته جذورا إخوانية وشرعية بدلا من أن يجعلها جذورا إيمانية وعقيدية فحسب، واقرأ معى هذه الفقرة:

«لقد كان الشيخ الغزالى صاحب الفضل الأول فى جعل الإسلام فى بؤرة اهتمامى وأبناء جيلى، وهو مَنْ بث فينا الوعى العملى بالإسلام كمشروع حضارى نهضوى، وقد تأثرت به كثيرا فى البداية، من خلال خطبه فى مسجد عمرو بن العاص، ثم من خلال محاضراته لما دخلنا الجامعة، وكنا ننظم له المحاضرات فيها، لقد كنا نصلى فى مساجد كثيرة مثل مساجد الجمعية الشرعية، أو أنصار السنّة، وذلك لسماع أى شيخ مفوّه، ولكن الشيخ الغزالى لما له من تاريخ وسمعة طيبة اجتذبنا له، بل اجتذب الإخوان المسلمين أيضا فيما بعد، خاصة الذين خرجوا من المعتقلات وكانوا يحضرون دروسه، ومنهم الأستاذ حسن الهضيبى الذى كان يصلى وراءه فى مسجد عمرو بن العاص، رغم الخلاف القديم بينهما».

(٩)

هكذا يؤثر حسام تمام أن يسند الزعامة الفكرية للإخوان إلى الشيخ الغزالى، حتى إنه يروى أن المرشد كان يأتم به، وفى هذا نظر كبير، تبعًا لما نعرفه من حقائق الوقائع المادية:

«وأذكر فى هذا الصدد أن د. أحمد الملط، وكان ممن خرجوا فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، قد سأله يوما بعد إحدى خطبه: وماذابعد؟ فكان رد الشيخ الغزالى عليه: هذا سؤال عليكم أنتم الإجابة عنه، وكان يقصد بقوله: «أنتم»، الإخوان المسلمين».

«كانت خطب الشيخ الغزالى تُنضج عند المسلم فكرة وجود مشروع حضارى للأمة الإسلامية، وكان أول مَنْ سمعت منه مثل هذا الكلام، فرغم أننى متدين منذ صغرى لكننى لم أسمع بهذا. كنت أسمع دروس أنصار السنّة وكلها تدور حول قضية التوحيد، ومحاربة البدع، كتقديس الأولياء، والتبرك بالأضرحة، أما دروس الجمعية الشرعية فتدور حول العبادات والفرائض، هذا ما كنت أعيش فيه، وهذا كان هو الدين بالنسبة لى، إلى أن استمعت إلى الشيخ الغزالى فتغير هذا كله إلى مشروع عام للأمة، مشروع بعث الأمة ونهضتها، مشروع بناء دولة ووطن كان يمكن أن يحقق النصر على اليهود عام ١٩٦٧ لو التزمنا به، كل هذه المعانى الجميلة كان للشيخ الغزالى الفضل فى ترسيخها فى نفوس الشباب».

(١٠)

ربما كان من حقنا أن نتوقف هنا لنسأل أنفسنا: هل يريد كاتب السيرة أو صاحبها أن يوحى بأن أبو الفتوح هو أبرز تلاميذ مدرسة إخوانية ثالثة (بعد مدرستى حسن البنا، وسيد قطب)، وهى مدرسة الشيخ الغزالى؟ أم أنه يقدم بهذا كله لموقفه حين تحدث أمام الرئيس السادات متعجبا من أن يكون الشيخ الغزالى بعيدا عن الرئيس بينما المنافقون قريبون؟

ومع هذا فإن التاريخ كعادته لا يرحم إذا ما تجاهلناه، وفى هذا الصدد فإن السادات نفسه كان هو الذى عين الشيخ الغزالى وكيلا لوزارة الأوقاف (بعد فترة من وقفة عبد المنعم) لشئون الدعوة، واستقبله، وحادثه، وإذا كان لى أن أذكر بعض ما سمعت من الرجل (أى الشيخ

الغزالي) نفسه، فإنى أذكر أنه كان يحب الرئيس السادات، لكنه لم يكن مرتاحا إلى نشاط مجموعة السيدات المحيطات بالسيدة جيهان السادات، وهذه قصة طويلة وموضوع آخر.

(١١)

ومع هذا الوعى المصنوع الذى يفرضه حسام تمام وعبد المنعم أبو الفتوح على السيرة التى بين أيدينا فإننا نرى فرصا كثيرة لتيار اللاوعى الجميل، وليس أدل على هذا التيار من رواية عبد المنعم عن حرص الإخوان على الاستيلاء على اللجنة الفنية فى اتحاد الطلاب برغم غياب فكرتهم عنها وخبرتهم بها، وهو فى هذا الصدد يقول:

«... لم يكن لنا أى تصور عن الفن يسمح لنا بخوض انتخابات من أجل السيطرة على اللجنة التى تديره وتوجهه، لكننا فعلناها وقررنا خوض الانتخابات فى هذه اللجنة.. فقط لوقف ذلك الفساد الذى كان يعنى الفن نفسه!!».

«الطريف أننا رشحنا لتلك اللجنة الأخ حسن عبد ربه، وكان أخا ريفيا بسيطا لم يسبق له الخروج من قريته والنزول إلى القاهرة إلا عندما التحق بكلية الطب! فى حين ترشح أمامه عدد من الشباب اليسارى والناصرى كانت لهم علاقة وثيقة بالفن هواية وممارسة، وحتى يوقعونا فى الحرج جاءنا أحدهم وسألنا أمام تجمع من الطلاب: أين مرشحكم فى اللجنة الفنية حتى أناقشه؟ وما برنامجه فى اللجنة؟ كان حسن عبد ربه وقتها يقف خلفى مباشرة، ولما كنت واثقا من أنه لا يعرف فى الفن شيئا، وأنه لن يصمد أمامه لحظة واحدة، فقد قلت له: اذهب وابحث عنه!».

«كان الفن أبرز نقاط ضعفنا، ومن ثم كان نقطة الضعف الكبرى فى هذه الانتخابات، ولزمن طويل بعدها هى اللجنة الفنية، ورغم ذلك استطعنا أن نفوز فيها، وفى أربع لجان أخرى من اللجان الست، ولم نخسر إلا فى لجنة الجوالة، التى فاز فيها طلاب آخرون لم يكن لهم اتجاه فكرى محدد، لكنهم كانوا مهذبين، وغير معادين لنا، ومن ثم أصبحت قيادة الاتحاد معنا».

(١٢)

ثم يبدو عبد المنعم أبو الفتوح فى تصوير حسام تمام، وكأنه خرج من جلده وارتدى جلدًا جديدًا:

«وحين فزنا باللجنة الفنية فى الاتحاد لم يكن لدينا أى رؤية عن الفن سوى أنه حرام، ومن ثم لم يكن لدينا أى تصور عن إدارة هذه اللجنة سوى إيقاف عملها تقربا إلى الله».

«للأسف كانت رؤيتنا قاصرة ومتأثرة بما نراه من انحلال، وتهتك، وما كانت تقيمه اللجنة الفنية وقتها من حفلات رقص، وخلاعة، وعرض لأفلام مبتذلة. لم يكن فى وعينا وقتها أن الفن يمكن أن يكون وسيلة لنشر الأفكار النبيلة، وأنه ليس عيبا فى ذاته، لكن غلبتنا الممارسات الفاسدة التى كانت تتم باسم الفن، فكان هدفنا من الترشح للجنة الفنية والفوز بها هو إيقاف المنكر والانحلال الذى تبثه بين الطلاب، ومن ثم عطلنا عملها بمجرد أن فزنا بها، ولا أتذكر لها نشاطا يذكر لسنوات حتى بدأنا من خلال الجماعة الإسلامية نتبنى مفهوم الفن الهادف، والفن الإسلامى الذى بدأ وقتها بالأناشيد الثورية والجهادية».

وأشهد الله أن الواقع الذى أعرفه أن هذا قد ينطبق على جيل حسام لا على جيل عبدالمنعم، لكن ماذا بوسعنا أن نفعل إذا كان التاريخ يكتب بأثر رجعى!!

(١٣)

وربما كان أكثر ما عجبت منه فى سيرة حياة عبد المنعم أبو الفتوح هو حرص كاتبها على أن يجعل الحياة السياسية المعاصرة تبدأ من وجود عبد المنعم ونشاطه ودوره فى طب القاهرة، وكأنما كان حسام تمام وعبد المنعم نفسه متأثرين بسلوك جمال عبد الناصر فى بدء الحياة المصرية الصحيحة على يديه.

ومصدر عجبى من هذا الأمر أن الكتاب نفسه يشير (حتى وإن كان فى عجالة وسرعة)، إلى أن الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية نشأ فى آخر (١٩٦٩)، بل سجل كمنظمة حقوقية فى الأمم المتحدة (١٩٧٧)، وأن هذا الاتحاد كان هو الذى بدأ نشر الأدبيات التى كانت الجماعة الإسلامية تنشرها فى مصر وتعتمد عليها، وهكذا فإن الأمر لم يبدأ بطب القاهرة إلا فى خيال أبناء طب القاهرة، وقد كنت منهم.

كذلك فإنى أعجب من أن يتصور حسام تمام أو عبد المنعم أن انضمام شباب الجماعات الإسلامية للإخوان جاء فى نهاية السبعينيات بعد تفكير واختيار وموازنات، ومصدر عجبى أن الصحفيين الأجانب كانوا - كما ذكر حسام تمام نفسه - يكتبون منذ ١٩٦٧ عن «عودة الإخوان فى مصر»، مشيرين بكل وضوح إلى هذا الجيل من طلاب مصر.

(١٤)

وأعجب مرة ثالثة حين أرى حسام تمام يصوغ فى سيرة عبد المنعم أبو الفتوح ما ينبئ عن حرصه على نفى الآخر نفيا نهائيا، وذلك على نحو ما يرويه تحت عنوان «جماعة شباب الإسلام»، ولعل هذه الفقرات من كتابه تنطق بوضوح بما نعجب منه، وبخاصة أننا نعرف أن عصام الشيخ كان أمير الجماعات الإسلامية كلها:

«وحين أروى شهادتى فى قضية العلاقة بين الحركة الطلابية الإسلامية والسادات، فإننى أتحدث عن الجسم الرئيسى لها، الذى صار يعرف بالجماعة الإسلامية، والذى شرفت بأننى كنت أقدم مؤسسيها، وحديثى فى هذا من خلال دورى وموقعى دون أن أصادر على ما قد يكون حدث بالنسبة لفصائل هامشية نسبت للحركة الإسلامية فى هذه الفترة، دون أن يكون لها وزن معتبر بما يصح معه القول أنها لا تمثل الحركة الإسلامية، أقول ذلك وعينى على قوله (تعالى): ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف: ٨١]».

«فقد فوجئنا ذات يوم – وأظنه فى نهاية عام ١٩٧١ – بلافتات تملأ ساحات كلية الهندسة جامعة القاهرة، تحمل اسم «جماعة شباب الإسلام»، وكانت اللجنة الدينية هى التى تمثلنا فى الكلية، وكان المسئول عنها الذى يمثلنا فى الكلية الأخ عصام الشيخ، وحين سألناه عن هذه اللافتات أخبرنا بأنه فوجئ مثلنا بهذا الأمر، وأن هؤلاء الطلاب الذين كوّنوا جماعةشباب الإسلام لا علم لنا بهم، ولم يكن لهم أى نشاط معنا إطلاقا قبل ذلك، وأنهم الآن يحدثون الطلاب عن الإسلام، بل حتى الطالبات أيضا يقفون معهن ويحدثونهن عن الإسلام، وخلصنا وقتها إلى نتيجة جازمة بأن هؤلاء الطلاب من جماعة شباب الإسلام غير متدينين، ولا ينتمون إلينا، لأن الوقوف مع الطالبات والحديث معهن كان فى هذه الفترة ممنوعا، حتى وإن كان هذا الحديث عن الإسلام».

(١٥)

ثم ندخل إلى المصطلحات من باب خاطئ يرسمه حسام تمام رسمًا، ويضعه على لسان عبدالمنعم:

«لقد كان نمط التزامنا الدينى سلفيا غارقا فى السلفية، كما قدمت (ننبه القارئ لهذه الفقرة إلى أن المؤلف لم يكن قدم لهذه الفكرة، وإن كان هذا هو اقتناعه فى مواضع أخري)، ولم يكن مقبولا لدينا الحديث عن دعوة الطالبات، ورأينا وقتها أن تكون هذه مهمة الطالبات الأخوات الممثلات للحركة الطلابية الإسلامية، وأما حديثنا نحن الرجال معهن ـ فلا يجوز أن يكون إلا فى إطار محاضرة عامة، أو خطاب عام، وكان هذا الأمر فارقا بيننا وبين جماعات شباب الإسلام».

«كما كان خطابنا صارخا ثوريا فى نقد النظام الحاكم، وفى دعوته لتطبيق شرع الله، فى حين كان خطاب جماعة شباب الإسلام يبدو فيه الميل للنظام، كما لاحظنا أيضا ضعف التزامهم الشخصى، وعدم حرصهم على السنن الظاهرة، مثل اللحية، وأداء الصلوات فى المسجد، وهو ما لم يكن موجودا لديهم، وكان له دور فى عدم استمرارهم بعد ذلك، ما جعلنا نرفضهم وننظر إليهم نظرة متعالية، باعتبار أننا ملتزمون أكثر منهم، فقد كنا نحرص على التمسك بكل ما نعتبره سنّة فى الدين، فكنا فى حرصنا على الالتزام بالهدى الظاهر نرتدى الجلباب أحيانا فى الجامعة مثلاً».

(١٦)

ثم نفهم أن رعاية القيادات الجامعية الكبيرة لشخصيات من طراز عبد المنعم امتدت لتشمل أمورا تكاد تكون شخصية، أو شعيرية:

«وكانت تميزنا اللحى بشكل واضح، حتى إن الدكتور صوفى أبو طالب رئيس الجامعة وقتها طلب منى أن أهذب لحيتى لأنها كانت كثيفة جدًّا!».

(١٧)

ونواصل قراءة النص الذى يحرص (دون إشارة) على تكرار المزاعم التى روجها منذ اغتيال الرئيس السادات كُتَّاب من طبقة أحمد بهاء الدين، ومحمد حسنين هيكل، ومسئولون من طبقة حسن أبو باشا:

«وسمعنا بعد ذلك أن محمد عثمان إسماعيل، أحد أركان نظام السادات والمقربين منه، وكان أمين التنظيم بالاتحاد الاشتراكى، ثم محافظا لأسيوط فيما بعد، حين وجد أننا لا

نصلح أن نكون آلة فى يد النظام نتيجة خطابنا ومواقفنا، أراد أن يصنع له تيارا إسلاميا خاصا مرتبطا مباشرة بالنظام، وممثلا لتوجهاته بين الطلاب، وربما كان مسئولا عن تأسيس جماعة «شباب الإسلام» هذه، لكن الذى حدث غير ذلك تماما، فقد انحسرت هذه الجماعة، واختفى أعضاؤها من على الساحة، حتى إنها لم تخرج من كلية الهندسة، ولم نر لها أى أثر فى كلية أخرى، أو حتى فى كلية الهندسة نفسها فى الأعوام التالية، وأنا نفسى نسيت أسماء قياداتها، ولم أعد أتذكر سوى أشهرهم، المهندس وائل عثمان، وقد سمعت أنه كتب عن تجربة هذه الجماعة فى كتاب سماه «أسرار الحركة الطلابية»، وله فيما أعرف كتاب اسمه «حزب الله فى مواجهة حزب الشيطان»، وأتذكر منهم كذلك عصام الغزالى، وهو شاعر، والمهندس على مصطفى، وهو الآن صاحب مجموعة مدارس خاصة».

(١٨)

على أن أهم قضية تتعلق بتاريخ عبد المنعم أبو الفتوح.. وهى موقفه من قيادة السادات لمصر ولمجتمعها، لا تظهر فى هذه السيرة إلا متأثرة تماما بروح التحامل على هذا الرجل.. ومع هذا فقد أفلتت من هذا التحامل فقرة جميلة لعلى أعتبرها أفضل فقرات الكتاب كله من ناحية الصدق التاريخى:

«الحق يقال: إن السادات قد أزال العوائق أمام الحركة الإسلامية، لكنه - وللإنصاف والأمانة أيضا - لم يضع أى عوائق أمام الآخرين كى يعملوا وينشطوا فى الساحة، السادات كان ذكيا فى إدراكه ومعرفته بالمجتمع المصرى المتدين، والمحب للإسلام، وكان على ثقة بأنه لو أزال تلك العوائق التى كانت أمام الإسلاميين فسوف يجرف تيارهم جميع التيارات الأخرى».

«كانت الدنيا مفتوحة أمامنا، ولم تكن هناك العقبات التى كانت فى عهد النظام الناصرى فيما قبل، أو نظام مبارك فيما بعد، كنت وقتها - كقيادة طلابية - أستطيع مقابلة رئيس الجامعة صوفى أبو طالب (رئيس البرلمان فيما بعد)، أو حافظ غانم، نائب رئيس الوزراء، ووزير التعليم، فى أى وقت، خاصة إذا حدثت أى مشكلة مع الحركة الطلابية، أو الجماعة الإسلامية فى أى جامعة من الجامعات المصرية».

«كان هناك أيضا تسامح أو تساهل من الدولة مع الإخوان المسلمين بعد خروجهم من السجون، حيث سُمح لهم بالتواجد، وبالنشاط العام، ثم إقامة الاحتفالات الخاصة بالمولد النبوى فى الميادين العامة، ولم يكن الجهاز الأمنى يتدخل فى أى نشاط لنا أو لهم، من قريب أو من بعيد، حتى جاء أواخر السبعينيات، حين انقلبت الدولة على الإسلاميين جميعا، وبدأ التدخل الأمنى يظهر بشدة».

(١٩)

ونواصل قراءة مديح كتاب عبد المنعم للسادات، ولا نقول مديح عبد المنعم، حتى لا نحمله ما لا يطيق:

«لقد تميز عهد السادات بالحرية بما لم تشهده مصر منذ قيام الثورة، وكانت الحرية حقيقية، حرية عمل وليست حرية «كلام»، كما هو الحال فى عهد الرئيس مبارك الذى أطلق حرية الرأى، وقيد حرية العمل السياسى، والعمل العام عموما».

«لم نسمع أبدا فى عهد السادات، فترة السبعينيات، أن أحدا اعتقل منا، أو من الإخوان، أو حتى تم استدعاؤه أمنيا، ولم يمنعنا من توزيع كتاب أو مطبوعات، من أى نوع، ولم نر ضابط أمن دولة يدخل الجامعة ويعترض على أى عمل من أعمالنا، باستثناء ما حدث مع التنظيم الشيوعى، وحركة الفنية العسكرية».

(٢٠)

ويقارن كتاب عبد المنعم عصر السادات بما سبقه وما لحقه فى قوله:

«لم نعرف هذا التدخل المنحط الذى شهدته البلاد فيما قبل وبعد السادات، ولم نره أو نسمع به أبدا معنا ولا مع غيرنا، حتى إننا كنا نخيّم بألفى طالب فى منطقة «العين السخنة» دون أى تدخل من الجهاز الأمنى بأى شكل من الأشكال، وكان جميع الطلاب فى المخيم ملتحين يواظبون على الصلاة، كنا ندعو العلماء من جميع الاتجاهات الإسلامية لإلقاء المحاضرات دون أن يسألنا أحد لماذا أتيتم بهذا؟ أو: إن هذا الشخص ممنوع!! ».

«وفى محافظة المنيا كانت الجماعة الإسلامية تقيم مخيمها فى المدينة الجامعية لجامعة المنيا، ويحضره مئات الطلاب يبدؤون يومهم بطابور رياضى يقطع المدينة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، تصاحبه الهتافات الإسلامية المدوية دون أن يتعرض لنا أحد».

(٢١)

ومن المفيد لتاريخنا المعاصر، وزوايا الرؤية المتعددة فيه ما يحرص عبد المنعم أبو الفتوح على روايته من القول بأن مظاهرات ١٩٧٧ لم تكن من صنع أى تنظيم شيوعى أو إسلامى، وهو يتهم اليساريين بأنهم حاولوا أن يركبوا موجتها:

«... كانت مظاهرات شعبية عفوية وتلقائية دون تنظيم من أحد، ولكن اليساريين حاولوا أن يركبوا موجتها ويستغلوا الوضع، وكأنهم هم المنظمون لها، وقد شاركت شخصيا فى هذه المظاهرات ككثير ممن شاركوا، وكانت مشاركتى ومشاركة إخوة كثيرين كأفراد وليس كتيار سياسى، وجدنا مظاهرات تجتاح البلاد فشاركنا فيها ضمن حالة السخط والغضب على سياسات الحكومة، وموجة الغلاء.

«والحقيقة أن ما حدث كان دليلا على حيوية الشعب المصرى، فقد كانت ارتفاعات الأسعار طفيفة، وقد لا تذكر إذا ما قورنت بما يجرى الآن، ولا يتحرك له أحد! كان الشعب المصرى أيام السادات على درجة عالية من الوعى والحيوية دفعته للتحرك مباشرة، ومن دون توجيه من أحد للنزول إلى الشارع احتجاجا وغضبا، نزلنا الشارع كبقية الشعب، ولم يكن لنا ولا لغيرنا أى دور قيادى لهذه الانتفاضة، وقد شاركت فى هذه المظاهرات، ولم أشعر مطلقا بأن هناك تنظيما معينا يقودها أو يقف وراءها».

(٢٢)

وفى ميدان آخر من ميادين العمل السياسى فى الفترة التى تتعرض لها هذه المذكرات يحرص عبد المنعم أبو الفتوح فيما رواه على أن يتهم طلال الأنصارى (أحد زملاء صالح سرية فى حادث الفنية العسكرية) بالتدليس فيما يرويه من مذكراته عن قضية الفنية العسكرية التى نجا من الحكم عليه بالإعدام فيها:

«لقد كان الأخوان مصطفى يسرى وأسامة خليفة، يدعوان لمبدأ العنف من أجل التغيير، لكنهما لم يكونا يدعوان إلى تنظيم معين، أو للمشاركة فى عملية بعينها، لهذا لم نكن نعلم عنهما أنهما فى تنظيم أصلا، ومن ثم فقد فوجئنا بحادثة اقتحام الكلية الفنية العسكرية».

«وما أعلمه يقينا أنه لم تكن هناك أى صلة بين هذين الطالبين وقتها، وبين الإخوان المسلمين، لا من قريب ولا من بعيد، ولم يذكر أحد منهما ولا من بقية المتهمين أى شىء يؤكد وجود علاقة بين الإخوان وبين تنظيم الفنية العسكرية».

«وأنا أكتب هذه الشهادة نشرت شهادة طلال الأنصارى (وهو) الوحيد الذى خُفف عنه الحكم بالإعدام، من بين ثلاثة هم: صالح سرية، (قائد التنظيم)، وكارم الأناضولى، وقد نشرتها مجلة «روزاليوسف» المعادية للإخوان والتيار الإسلامى عموما! وقد لاحظت أن "طلال" يكرر فى هذه الشهادة الحديث عن علاقته بالإخوان بما يوحى بصلة الإخوان بالتنظيم، أو وقوفهم وراء محاولته الانقلابية.

«وهو يدلس فى هذه الشهادة حين يدّعى وجود صلة من هذا النوع بالإخوان ، فالحاصل أن الإخوان كانوا آنذاك محط احترام الشباب، وكان من الفخر لأبناء جيلنا أن يجلس أحد منا مع أحد الإخوان الخارجين من المعتقلات حديثا، ولا مانع من أن يكون طلال قد اتصل بهم كما اتصل بهم كل الشباب الإسلامى من أبناء جيلنا دون أن يكون ذلك دليلا على صلة تنظيمية».

(٢٣)

ويؤكد الكتاب الذى بين أيدينا على اتهامه لطلال الأنصارى بالتدليس:

«والدليل على أن ما ذكره طلال فى شهادته محض افتراء لم يحدث أن أحدا من المتهمين الآخرين لم يذكر الإخوان فى أقواله، من قريب أو بعيد، كما لم يتم التحقيق مع أى من أفراد جماعة الإخوان فى أثناء التحقيق فى القضية».

«كما أن حادثة الفنية العسكرية وقعت فى العام نفسه الذى بدأ فيه السادات يفرج عن الإخوان ويخرجهم من المعتقلات، فكيف يعقل أن الإخوان يفكرون أو يقدرون على القيام بتنظيم انقلابى بهذا الشكل على السادات الذى أخرجهم من سنوات السجن والتعذيب؟!».

«ولا يجب عزل شهادة طلال فى هذا الموضوع عن طبيعته الشخصية، فقد كان طلال الوحيد من المجموعة التى قُبض عليها الذى انهار واعترف بكل شىء من البداية إلى النهاية، وأفشى أسرار زملائه، ومن ثم فلا أستبعد أن ما يقوله عن علاقته بالإخوان هو من خياله أو تأليفه».

(٢٤)

ومع هذا التقرير الواضح من عبد المنعم أبو الفتوح لابد أن نذكر أن حديث عبد المنعم نفسه فى هذا الكتاب نفسه وبعد ٤ صفحات (أى فى فقرة قريبة) يكاد يورط الجماعات الإسلامية بدلا من الإخوان فى المسئولية عن حادث الفنية العسكرية:

«وكانت مؤسسات الدولة فى نظرنا تمثل خروجا عن روح الإسلام ويجب أن تزال ويقام بدلا منها نموذج إسلامى، وكانت السيطرة على الدولة تقوم على تفكير انقلابى بسيط ساذج، وهو ما تم بالفعل، حين قام به بعض الشباب المخلصين الطيبين من التنظيم الذى عرف باسم «تنظيم الفنية العسكرية»، فقد تدربوا على بعض الأسلحة الخفيفة، وتجمعوا للاستيلاء على الحكم بأن يتوجه بعضهم للسيطرة على مكان وجود الرئيس السادات، والبعض الآخر على مبنى الإذاعة والتليفزيون ليعلنوا منه إقامة الدولة، ثم يقوموا بتطهير المجتمع من الرجس السائد فيه!!».

«كان هذا تفكير مجموعة إسلامية من جيلنا لإقامة دولة جديدة فى بلد كمصر من أقدم بلاد العالم وأكثرها مركزية! وبالطبع كان لابد لهذا الانقلاب الساذج من الفشل الذى دفع ثمنه الضحايا من الجنود البسطاء الذين لا ذنب لهم، ورغم ذلك كنا ننظر لهذه العملية التى قام بها زملاء من جيلنا على أنها تجربة حقيقية لإقامة الدولة، لكنها فشلت ولم توفق، فلم نرفضها فى ذلك الوقت، ولم نكن ننظر إليها على أنها تجربة ساذجة لن تجدى نفعا!».

(٢٥)

أما أبرز الشخصيات التى تحظى باحترام صاحب هذه المذكرات الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح وتقديره لها فهى شخصية الشيخ عمر التلمسانى المرشد الثالث للإخوان، الذى تم على يديه انضمام عبد المنعم أبو الفتوح للإخوان:

«لقد كان الأستاذ عمر شخصية اجتماعية وليس حزبيا، ولم يكن يميز فى تعاملاته بين الإخوان وبين غيرهم من خارج الإخوان، كما لم ينشغل - رحمه الله - مثل آخرين بما كان بين الإخوان وبين الخصوم الذين آذوهم وعذبوهم فى السجون، لقد كان يحثنا دائما على النظر لمستقبل الدعوة، مع أننا كنا متحفزين للانتقام منهم، وكنا نستطيع ذلك، إلا أنه بذل وسعه لمنعنا من ذلك، بل ودفعنا إلى عدم الانشغال أصلا بهذه القضية، ولا أذكر طوال الفترة التى لازمته فيها أنه ذكر ما حدث له أو للإخوان فى السجون من تعذيب وترويع، حتى لا يحفزنا على الانتقام والثورة، وأحسب أن ذلك يعود لشخصيته النقية المتسامحة، ذات التكوين الصوفى الربانى».

«لقد كان من الصعب أن تطفو مشاكل الستينيات على السطح فى ظل وجود الأستاذ عمر على رأس الجماعة، أو أن يجعل من الإقصاء والإبعاد منهجًا فى التعامل مع المختلفين مع الجماعة فكريا، فقد كان - رحمه الله - شخصية تجتمع عليها القلوب، حتى إنه أتى بالأستاذين صلاح شادى وفريد عبد الخالق المعروفين بالانفتاح وعيّنهما فى مكتب الإرشاد جنبا إلى جنب مع المختلفين معهم من أبناء التنظيم الخاص مثل الأساتذة: مصطفى مشهور، وأحمد الملط، وأحمد حسنين - رحمهم الله - جميعا».

(٢٦)

وهو يواصل مديح الأستاذ عمر وسياسته ونهجه:

«أدار الأستاذ عمر مكتب الإرشاد بتنوعه، وتعدد مشارب أعضائه واتجاهاتهم، بحنكة واقتدار كبيرين، أما بالنسبة لما ردده البعض من أن الأستاذ عمر التلمسانى كان واجهة طيبة للمجتمع وللرأى العام يدير من ورائها قادة النظام الخاص، ويتحكمون فيها، وأن الأمر والنهى كان بأيديهم، فهذا غير صحيح على الأقل فيما رأيته وعرفته، وقد كنت فى منزلة قريبة من الرجل، فالإخوان كانوا قد تجاوزوا تماما موضوع النظام الخاص، ولم تعد تعنى كلمة التنظيم إلا تنظيم الجماعة المعروف، والذى لا يوجد فيه خاص وعام، كانت لديهم حساسية من كلمة النظام الخاص».

«وأذكر أن الأستاذ عمر كان دائما ما يسأل: هل هناك أمر يحدث داخل الجماعة ولا أعرفه؟ وكنت أستغرب هذا السؤال، ولم أكن أفهمه حتى علمت فيما بعد أنه كان يقصد بسؤاله إذا ما كان

هناك شيء خاص أو سرى يعده أصحاب التنظيم الخاص وهو لا يعلم عنه شيئا؟ وقد قلت له ذات مرة: إن هذا الأمر لا يرد حتى على أذهاننا نحن الشباب، وإنه لم يحدثنا فيه أحد من الإخوان».

(٢٧)

وعلى صعيد التيارات فإن عبد المنعم أبو الفتوح يعتز اعتزازا لامثيل له بالمجموعة الشبابية التى انتمى إليها، وهى المجموعة التى أسست الجماعات الإسلامية فى الجامعة المصرية فى جيل السبعينيات:

«... وللتاريخ أقول: إن الجماعة الإسلامية التى ولدت فى أحضان الجامعات المصرية يعز أن نجد لها مثيلا فى تاريخ العمل الإسلامى والطلابى، خاصة فى مصر، لقد كانت هذه الجماعة تجربة فريدة فى العلاقات الإنسانية والأخوية بين أبنائها، وكانت مثالا نادرا للتجرد والإخلاص، والرغبة الصادقة فى العمل لنصرة دين الله، ولأجل الوطن، كنا مجموعة من الشباب الذين لم تجمع بينهم أى مصلحة شخصية، أو توجه سياسى، أو يحركهم تنظيم معين، وكانت تربطنا علاقة محبة وأخوة صادقة تزيد على ما بين إخوان النسب من قوة وصدق».

«لم نتعرف إلا على الله، وعلى العمل من أجله، وأحسب أن علاقاتنا كانت صافية خالصة لوجهه، ومن دون أى نوازع شخصية، حتى إننا كنا نؤثر بعضنا ونتسارع فى إنكار الذات، ولم تكن قضايا الإمارة والرئاسة تعنى أحدا منا أو تشغل باله».

(٢٨)

وهو يصف باعتزاز ما يسميه عملا تربويا هائلا قامت به الجماعة الإسلامية:

«وأحسب أن هذه الفترة شهدت عملا تربويا هائلا قامت به الجماعة الإسلامية، وأثر فى أجيال الطلاب فى كل جامعات مصر، فقد استضافت عشرات الشيوخ والعلماء وأقامت مئات المعسكرات الطلابية، وربت آلافا مؤلفة من الشباب فى كل أنحاء مصر، وتركت فيهم أثرا لا يمكن أن يمحى حتى مَن التحق منهم بجماعات إسلامية أخرى، أو ترك العمل الإسلامى برمته، وهو جهد أحسب أنه أكبر مما بذل فى كل مراحل الحركة الإسلامية فيما بعد».

«ولا أبالغ إذا ما قلت: إن جيل السبعينيات كان الأقوى والأكثر نضجا وتأثيرا بين كل أجيال الحركة الطلابية الإسلامية، ساعدت على ذلك ظروف البلاد، وأجواء الحرية والانطلاق التى عاشها فى عصر الرئيس السادات، كما ساعد على ذلك أننا بدأنا من لا شىء، ولم ندرك مرحلة الإخوان السابقة علينا فى الخمسينيات والستينيات وما أصابها من صراعات وخلافات، لقد كنا نعيش لحظة البراءة، والفطرة النقية التى لم تخالطها السياسات والتنظيمات بعد، لذلك لما دخل جيلنا العمل الإسلامى فيما بعد لم تحدث صراعات وخلافات كالتى وقعت للأجيال التى قبلنا، وما زالت تلك سمة تميز الجيل الأول من الجماعة الإسلامية أيام وحدتها».

«وأحسب أن جزءا من قوة الجماعة أنها الأقوى فى تاريخ الحركة الطلابية الإسلامية ذاتية النشأة والقيادة، فقد بدأنا بلا رؤساء أو قادة سابقين علينا، وتحركنا بذاتية وعفوية حتى فى أخطر القرارات التى اتخذناها، فخففت هذه الذاتية من استفزاز النظام، وقللت من مخاوفه إزاء فكرة سيطرة الإخوان على الحركة الطلابية الجديدة، كما أن الذاتية أنضجتنا كثيرا، وأعطتنا قدرات أكبر مما لدى أقراننا، والأجيال الجديدة».

(٢٩)

وعلى صعيد الممارسات السياسية يثبت عبد المنعم أبو الفتوح أنه هو نفسه قد بدأ يمضى إلى طريق النضج السياسى!!:

«ورغم أن مبادرة السلام كانت خطأ، بل سقطة كبرى للسادات فى رأى الإخوان، أو غيرهم من الاتجاهات السياسية الأخرى، فإن الموقف الذى واجهته به المعارضة كان بالغ القسوة والعنف، وكان مسئولا إلى حد كبير عن خروجه عن وعيه، وفقدانه السيطرة على أعصابه، فعلى صفحات مجلة «الدعوة»، وفى المؤتمرات وداخل الجامعة جرى الهجوم على السادات واتهامه بالعمالة والخيانة بعدما قال: إن ٩٩٪ من أوراق اللعبة فى يد أمريكا».

«وبلغ عنف الهجوم على السادات أقصاه من الشيخ أحمد المحلاوى فى الإسكندرية، الذى انتقل إلى الهجوم على زوجته السيدة جيهان واتهامها باتهامات قاسية!».

«كان صعبا علينا ألا نهاجم السادات أونتهمه بالخيانة والعمالة، لكن الإخوان الكبار كانوا

أعقل منا، فلم يتعرض أحد منهم لشخص السادات أو زوجته، بعكس الإسلاميين المستقلين الذين كان هجومهم عليه عنيفا وشخصيا، كما فعل الشيخ حافظ سلامة، أو الشيخ محمود عيد، والشيخ أحمد المحلاوى فى الإسكندرية».

«ورغم رفضى لمبادرة السادات جملة وتفصيلا، فإننى أذهب إلى أن هذا الإقدام على الصلح مع اليهود، والصداقة معهم بعد هذه العداوة والحرب الكبيرة بيننا وبينهم، لم يكن من صنع السادات فقط، بل بضغوط خارجية شديدة عليه».

(٣٠)

وخلاصة القول فى هذه المذكرات أنها عمل تاريخى مبدع، ومنشئ، ودقيق، ومع كل هذا التدقيق لست أدرى سببا لأن يرد اسم أمير الجماعة الإسلامية فى جيل عبد المنعم وهو الصديق المغفور له الدكتور ثناء أبو زيد خطأ فى صفحة ٥٠ على أنه صفاء أبو زيد.

■ ■ ■

الفصل السابع

مذكرات السيدة فاطمة عبدالهادى

رحلتى مع الإخوان المسلمين
من الإمام حسن البنا إلى سجون عبدالناصر

(١)

هذا هو العنوان الدال الناطق الموحى الذى صدرت به مذكرات السيدة فاطمة عبد الهادى، التى هى واحدة من أبرز سيدات الإخوان المسلمين، فهى زوجة محمد يوسف هواش، الذى كان واحدًا من ثلاثة صدر عليهم الحكم بالإعدام فى قضية سيد قطب، ونفذ فيهم الحكم.

وقبل هذا الحكم وبعده شاركت فاطمة عبد الهادى زوجها مجده، وكفاحه، وخططه، وأهدافه، وكانت شأن كثير من زوجات الإخوان المسلمين عنصرا فاعلا فى تنظيمهم، وحياتهم، ومسيرتهم، وتأثيرهم، وقد أتاح لها العمر أن تملى مذكراتها على مؤرخ الإخوان المسلمين المغفور له الباحث المتميز حسام تمام.

وقد كتب حسام مذكرات فاطمة عبد الهادى بالحب ذاته الذى كتب به مذكرات عبد المنعم أبو الفتوح، ومع أنه كتب مذكرات أبو الفتوح على أنه زعيم معروف، فإنه كتب مذكرات فاطمة على أنها زعيمة غير معروفة، وهكذا وفاها حقها، ومنحها ما تستحق من المجد والتمجيد.

ولئن كان حسام تمام قد أهمل تسلسل التاريخ العام فى كثير من المواضع فإنه قد عوض هذا باهتمامه الحثيث بتاريخ الفكرة، ومحاولة إضفاء الحياة والتطور على «الفكرة الإخوانية» حتى فى الحالات التى رفضت الفكرة نفسها أن تنصاع لفهمه الخاص للتطور الفكرى والعقلى.

(٢)

نرى حسام تمام فى بداية الكتاب يذهب إلى فرض رؤيته أو استنتاجه على بداية التنظيم الخاص بالأخوات المسلمات من خلال ما سمعه من السيد فاطمة عبد الهادى نفسها، مع أن بقية الحقيقة قد تكون بعيدة عن إدراك السيدة بإرادتها أو بغير إرادتها، ومع هذا فلنقرأ استهلاله حيث يقول:

«السيدة فاطمة عبد الهادى واحدة من مؤسسات قسم الأخوات المسلمات، وأبرز قادته، كانت ضمن جيل التأسيس الأول للعمل النسوى الإسلامى، وإذا كان العمل النسوى قد بدأ ولو خجولا بعد سنوات قليلة من تأسيس الجماعة بالإسماعيلية، وقبل انتقالها للقاهرة (وتحديدا فى إبريل ١٩٣٢)، وعرف بعضا من النشاط مع الانتقال للعاصمة على يد السيدة لبيبة أحمد، فإنه شهد انطلاقته فى إبريل ١٩٤٤ مع إطلاق أول لجنة تنفيذية للأخوات المسلمات بأمر من مؤسس جماعة الإخوان الشيخ حسن البنا، وبإشراف محمود الجوهرى.

«وهى اللجنة التى ضمت اثنتى عشرة أختا برئاسة السيدة آمال العشماوى، وكانت وكيلتها السيدة فاطمة عبد الهادى».

(٣)

ويقدم حسام تمام مبرراته للحديث عن تاريخ فاطمة عبد الهادى باعتباره نموذجًا لحياة المرأة فى جماعة الإخوان المسلمين فيقول ضمن ما يقول:

«... كانت فاطمة عبد الهادى من أقرب الناس إلى بيوت قادة الإخوان ورموزهم التاريخية، فهى عرفت الإمام الشيخ حسن البنا مؤسس الإخوان عن قرب، واتصلت بأهله وزوجته وبناته، بل وكانت المرأة الوحيدة من غير أهله التى عاشت ساعات اغتياله، وكانت حاضرة ساعة غسله وخروج جنازته من بيته، كما كانت وثيقة الصلة بنساء آل بيت حسن الهضيبى المرشد الثانى، ونساء بيت سيد قطب أبرز منظرى الجماعة بعد مؤسسها، عاشت معهن محنة اعتقال الرجال، وأزمة بيوت الإخوان التى خلت من العائل، ثم عاشت معهن محنة الاعتقال

مع خمسين من نساء الإخوان فى السجن، وكانت شاهدة وفاعلة فى أهم عطاء للنساء فى العمل الحركى الإسلامى».

(٤)

ويعطى حسام تمام أهمية خاصة لعلاقة السيدة فاطمة عبد الهادى بالأستاذ سيد قطب فيقول:

«وبحكم رفقة زوجها لسيد قطب طيلة سنوات الاعتقال التى قضيا معظمها فى مستشفى السجن، كان لشهادة فاطمة عبد الهادى على أهم مفكرى الحركة الإسلامية فى نصف القرن الأخير أهمية استثنائية، فهى عرفته عن قرب من خلال العلاقة الخاصة بين زوجها وبينه، كما اقتربت من حياته الخاصة مرة عبر علاقتها بشقيقاته، ومرات باللقاءات المتكررة فى أثناء زيارتها لزوجها رفيقه فى المعتقل والمستشفى، والتى وصلت إلى أن صارت موضع ثقته ووسيطه فى مشروع زواج لم يكتمل!».

(٥)

ونعود مع المذكرات لنقرأ ما تلخص به فاطمة عبد الهادى قسوة المعاناة التى عاشتها بزواجها من محمد يوسف هواش، ولسنا فى حل من أن نكثر من الاستشهادات التى أوردتها، لكننا ننقل عنها ما عبرت به عن هذا المعنى فى فقرة موحية:

«... كانت حياتنا شاقة خاصة فى بداية الزواج، خطبنى عام ١٩٥٢ عاما كاملا دون أن أراه، ثم تزوجنا فى نهاية عام ١٩٥٣، ومكث معى مدة سنة تقريبا، ثم بدأ الصدام مع حكومة الثورة فاختفى معظم عام ١٩٥٤، حيث قضى عشرة أشهر تقريبا هاربا من الملاحقة.

«وحين اعتقلوه دخل السجن ولم يخرج إلا عام ١٩٦٤ مريضا متعبا، فبقى معى فترة بسيطة جدا اعتقل بعدها فى شهر يوليو عام ١٩٦٥ مع الشهيد سيد قطب،

«واستمر فى السجن إلى أن صدر الحكم بإعدامه، مع سيد قطب، وعبد الفتاح عبده إسماعيل».

«وأعدم فى ٢٩ أغسطس من عام ١٩٦٦ وربما لم تتجاوز حياتنا معا شهورا معدودة، فيما قضى معظم حياته إما فى السجن أو هاربا من الاعتقال».

(٦)

وهى تعاود التأمل لتصف الرجل الشهيد:

«... كان الشهيد محمد هواش رجل دعوة نذر لها كل حياته تقريبا، فكان شديدا فى معاملته معى ربما بحكم نشأته الريفية التى أثرت على نظرته للمرأة، فكان يرى أنها يجب أن تنفذ ما تؤمر به دون نقاش».

«ولكن لما كنت كثيرة النقاش وأحيانا الاختلاف معه، كان يقابل ذلك بغضب وحزن، وكان يقارن بينى وبين والدته فى معاملتها لوالده».

«لقد كان يرى فى والدته المثال للمرأة المسلمة التى تطيع زوجها، وتأتمر بأوامره حتى إنه غضب ذات مرة لخروجى لأداء واجب العزاء فى إحدى الأخوات، وكانت شقيقة زوجة أخى، دون انتظار إذنه، على الرغم من صلة القرابة التى تجمعنى بها، وعلى الرغم من أنه لم يكن موجودا وقت الوفاة ليأذن لى!».

(٧)

ومع تحفظها على شدة أخلاق محمد يوسف هواش فى تعامله مع المرأة التى هى نفسها، فإنها تشير إلى ما صبغته به تجربة السجن (لاحقا) من سماحة ونعومة وتقدير لروح العطاء والتضحية عند زوجته صاحبة المذكرات:

«ولكن للحق فقد تغيرت معاملته تماما لى بعد خروجه من المعتقل عام ١٩٦٤ فقد شعر بمقدار ما عانيناه فى غيابه، وتضحياتنا من أجله، ورأى كيف كنت أقوم بخدمة الدعوة بإخلاص وتفان، ولا أشكو المعاناة التى استمرت قرابة عشر سنوات، فكان بعد خروجه من السجن إذا رآنى مهمومة أو متعبة يحاول أن يخفف عنى ويواسينى».

(٨)

بل إن فاطمة عبد الهادى تجد الشجاعة لتروى (ما قد تخجل منه أخريات) من حديث عن وصول زوجها إلى قمة إنسانية وعاطفية مقدورة:

«كان يحنو على كالطفلة على صدره ويقول لى: هذه الرأس التى ضحت صاحبتها وعملت كل هذا من أجلى، لا توضع على الوسادة، بل مكانها ذراعِى».

«وكان يطلب منى أن أسامحه على شدته معى فى أول زواجنا، وكان يقول لى كثيرا إنه لم يكن يعرف حقيقة معدنى إلا بعدما رأى تضحياتى معه، وعملى من أجل الدعوة».

(٩)

وتحرص السيدة فاطمة عبد الهادى على أن تشير إلى تأثير حضارى بثه سيد قطب فى زوجها:

«والحق أيضا أنه تأثر فى ذلك بالأستاذ سيد قطب، خاصة فى الفترة التى صاحبه فيها فى مستشفى سجن طرة حين اطلع على طريقته الراقية فى التعامل مع أخواته البنات اللاتى كن يأتين لزيارته فى المستشفى».

«ويبدو أنه تغير تماما فى نظرته للمرأة وتعامله معها بفعل الأستاذ سيد قطب، الذى كان حنونا ورقيقا للغاية مع أخواته».

(١٠)

وتتحدث فاطمة عبد الهادى عن ارتباط زوجها بسيد قطب ارتباط ندية لا ارتباط تبعية، وربما كان حبها لزوجها من أسباب اعتقادها فى هذه الفكرة، ومن الطريف أنها تنسب استنتاجاتها التى توردها إلى السيدة حميدة قطب شقيقة الشهيد سيد قطب:

«... ومثلما تأثر بسيد قطب فقد تأثر سيد قطب به، وقد أخبرتنى الأخت حميدة قطب أن الكثير من أفكار محمد يوسف هواش قد تسللت إلى عقل سيد قطب وقلبه، ونقلت عن أخيها

الشهيد سيد قطب أنه تأثر بيوسف هواش كثيرا، خاصة فيما كتبه فى كتابه الشهير «معالم فى الطريق»، وهو ما كان سببا فى إعدامه مع الأستاذ سيد قطب، رغم أنه لم يكن له حضور مؤثر فى تنظيم ١٩٦٥».

«... ارتبط زوجى الشهيد محمد هواش بالشهيد سيد قطب ارتباطا استثنائيا، فقد عاشا معا ما بين السجن ومستشفى السجن عشر سنوات كاملة، قبل أن يعدما معا عام ١٩٦٦، ولم تكن مجرد زمالة سجن فقط، بل زمالة أرواح، واهتمام مشترك بالإسلام والمسلمين».

(١١)

ثم تنسب السيدة فاطمة عبد الهادى بعض آرائها فى هذا الصدد إلى ما رواه لها زوج ابنتها أحمد عبد المجيد:

«ويجزم الأستاذ أحمد عبد المجيد، الذى كان معتقلا معهما، أن الشهيد سيد قطب استفاد من الشهيد محمد هواش فى خطه الحركى، وفى الإلمام بسيرة أحوال جماعة الإخوان المسلمين، والدروس المستفادة منها، حيث كانت فترة ملازمة الشهيد سيد للإخوان قبل عام ١٩٥٤ قصيرة، إلى جانب أنه لم يشهد فترة الإمام حسن البنا، كما استفاد الشهيد هواش من فكر سيد قطب وعلمه ورحلته فى عالم البحث والاطلاع والمعرفة والتجارب، فاختلطت التجربتان، وظهرت آثارهما فى كتابات الشهيد سيد قطب».

«ويروى الأستاذ أحمد عبد المجيد أن زوجى الشهيد هواش قال له ذات مرة وهم فى طوابير السجن الحربى: إن كل باب وكل عبارة فى كتب الأستاذ سيد أعرف متى كتبت، وأعرف مناسبتها ومناقشاتها حتى وصلت بصورتها التى ظهرت بها».

(١٢)

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر.. فلابد لنا أن نشير إلى أن السيدة فاطمة عبد الهادى كانت حريصة كل الحرص على الاستجابة لطلب متوقع من محرر المذكرات بإلقاء بعض الضوء على الطبائع الشخصية للشيخ سيد قطب فى محاولة للرد على ما أشيع عن قسوته وتجهمه وتشدده:

«... لم يكن (المقصود هو سيد قطب) متطرفا أو متشددا كما يصفه الكثيرون، فقد كنت أراه عندما كنا نذهب لزيارة زوجى الشهيد محمد هواش فى مصحة ليمان طرة، وكانا رفيقين بها، وكنت أذهب مع أمى ومعى سمية وأحمد، فكان الأستاذ سيد قطب يأخذ الأولاد ليتنزه بهم فى حديقة المصحة ليترك لنا فرصة للحديث أنا وزوجى».

«وكنت أشعر بأنه إنسان بسيط جدا، ومتواضع، وهذا ما خرجت به من معرفة عشر سنوات متواصلة كانت مع زوجى الشهيد فى سريرين متجاورين فى المصحة».

(١٣)

وتنفرد السيدة فاطمة عبد الهادى بالإشارة إلى أن سيد قطب كان مقبلا على الزواج لولا ما اعتاده أهل الصعيد من أمثاله من الالتفات إلى شقيقاتهم البنات قبل أن يبدؤوا حياة الزوجيه:

«وأذكر عندما خرج من المعتقل عام ١٩٦٤ أننى ذهبت لزيارته، ولم يكن زوجى محمد هواش قد خرج بعد من السجن، ودار بيننا حديث طويل كان فيه أننى سألته: لماذا لم يتزوج؟ فأخبرنى أن والدته كانت قد أوصته قبل وفاتها بشقيقتيه أمينة وحميدة، وأكد لى أنه ما إن يطمئن عليهما ويزوجهما سيتزوج إن شاء الله، وقد زوجهما بالفعل، ولكنه لم يتزوج بسبب استشهاده».

(١٤)

ولا تجد السيدة فاطمة عبد الهادى حرجا فى أن تذكر اسم السيدة التى رشحتها لتكون زوجة للشهيد سيد قطب:

«وكنت قد رشحت له الأخت فاطمة عيسى، التى تزوجت فيما بعد الأخ المهندس فوزى نجم الذى كان معتقلا، وكانت الأخت فاطمة عيسى واحدة من عشر أخوات تزوجن من الإخوان فى أثناء اعتقالهم، وأذكر منهن الأخت أمينة قطب التى تزوجت الأخ كمال السنانيرى، والأخت مديحة بنت أخت الشهيد سيد قطب».

(١٥)

ولا ينبغى لنا أن نمضى فى رحلتنا مع هذه الشخصية الإخوانية من دون أن نتحدث عن رؤيتها المحبة لزوجها الإخوانى القيادى أو الفدائى، ومن الحق أن نقول إن فاطمة عبد الهادى تتحدث عن زوجها بكل تقدير ممكن، فهى تتحدث عنه بتقديرها وبتقديره وبتقدير الإخوان وبتقدير الناس، وهكذا تجمع له كل حق التقدير ووجهات النظر فيها فتقول:

«لقد كان محمد هواش رجلا ربانيا صاحب إيمان راسخ، وكانت لديه قدرة على التأمل والتفكير فى ملكوت الله، كان يقول لى إنه أثناء سجنه يجلس فى زنزانته ويتأمل صوت العصافير ويفكر كيف تذكر الله وتناجيه، وكثيرا ما كنت أستيقظ فى جوف الليل فأراه يصلى ويبكى بتأثر وخشوع، وكانت هذه عادته منذ أول يوم زواجنا إلى يوم اعتقاله، وكنت أحيانا أغضب منه وأشكوه لأخى سيد، وكان مقربا إليه فيقول لى أخى: إن محمد يُحلق فى السماء بأخلاقه وسمو فكره، وأنت فى الأرض، فهو مع الملائكة وأنت تعيشين مع البشر، وقد كان أخى سيد شديد الحب له».

«وقد كان – رحمه الله – شفافا.. له روح نورانية، وكان رقيق القلب، ذا طاقة إيمانية متدفقة، وكان كثير التدبر والتفكر، ويروى بعض مَنْ سُجنوا معه أن أقرب فصول السنة إليه كان الخريف، لأن تساقط أوراق الشجر فيه كان يذكره بنهاية الأجل».

(١٦)

وإذا كان لابد من تعبير عن النهاية المادية لهذه العلاقة فإننا ننقل عن المذكرات ما تحكيه فاطمة عبد الهادى عن قصة اللقاء الأخير بزوجها قبل إعدامه:

«وعند زيارتى له والتى سبقت تنفيذ الإعدام، نقلونا إلى خيمة وأتوا به وقد تورم وجهه من شدة الضرب، ثم ألقوا به فى الخيمة أمامنا وهو يقول: مش عارف أندم على إيه؟ ماذا فعلت لأندم عليه؟! وأخبرنى أنهم كانوا يريدون منه أن يبدى ندمه على ما فعل ليعلنوا ذلك على الناس، ويستغلوه إعلاميا، ومَنْ يدرى فربما نفذوا فيه الحكم أيضا بعد إعلانه الندم.. لكنه رفض ذلك رغم التعذيب والإهانة».

«ولما رأى ابننا أحمد أخذه فى حضنه فبكى الولد وشكا له أن الناس وزملاءه فى المدرسة والشارع يعيّرونه بأبيه ويقولون: إنه الذى حاول قتل جمال عبد الناصر، وانفعل الولد ولم يكن قد جاوز الحادية عشرة من عمره وقال لأبيه: أنا مش قادر أعيش بسبب الناس! فقال له أبوه: يا بنى إن الموازين الآن مقلوبة، ولن تستقيم إلا فى الآخرة».

(١٧)

و تحاول فاطمة عبد الهادى أن تستعيد كل ما تتذكره من حواشى هذه الزيارة التى مثلت اللقاء الأخير بزوجها قبل إعدامه حتى تصل إلى توصية زوجها لها بأولادهما:

«كان متأثرا جدا فى هذه الزيارة، وعندما رأيته فى هذه الحالة طلبت من الضابط أن يسمح لى بإحضار الطعام الذى أخذوه منا عند دخولنا، فقال لى محمد: لماذا أتعبت نفسك؟ ثم إننى صائم؟ وهل تعتقدين أنهم سيسمحون لنا بأخذ هذا الطعام معنا لنفطر عليه؟! ثم هوّن على فقال: يا فاطمة إن هذه الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة، وإلا ما سقى منها الكافر شربة ماء، فهونى عليك، وقال لى: لا ترهقى نفسك».

«كان معنا فى هذه الزيارة ابن عمه الشيخ طوسون هواش، وكان شيخا أزهريا زميلا وصديقا للشيخ محمد سيد طنطاوى الذى أصبح مفتيا ثم شيخا للأزهر، فتأثر كثيرا من المشهد واحتضنه وبكى بشدة، فما كان منى إلا أن نزعته منه بحدة، وغيّرت موضوع الكلام، فقلت لزوجى: هنئ ابن عمك بخطبته لابنة عمك (وكان طوسون ينتظر الزواج)».

«وقبل أن يأخذوه منا قال لى: أوصيك بسمية وأحمد، فقلت له معاتبة: أتوصينى بأولادى؟! توكل على الله، والله لن يخزيك الله أبدا، وفى الصباح أعدموه».

(١٨)

و تشير فاطمة عبد الهادى إلى ما وصلها من حديث عن لحظات إعدام زوجها بما يجعل قلوبنا تتمزق لمثل هذا المصير القاسى:

«كان الإعدام يوم ٢٩ أغسطس من عام ١٩٦٦ فى حق الشهداء الثلاثة سيد قطب، ومحمد

يوسف هواش، وعبد الفتاح عبده إسماعيل، وأوقف التنفيذ فى حق الأربعة الباقين، وقد علمت أنهم لما أحضروا الشهداء الثلاثة للإعدام جاؤوا بشيخ ليحضر التنفيذ فقال للأستاذ سيد قطب: قل لا إله إلا الله محمد رسول الله، فرد عليه الشهيد ساخرا: حتى أنت جئت تكمل المسرحية! نحن يا أخى نُعدم بسبب لا إله إلا الله، وأنت تأكل الخبز بلا إله إلا الله!».

(١٩)

على أن حسام تمام لسبب يبدو معروفا يحرص على أن يقدم فاطمة عبد الهادى فى إطار مختلف عن الإطار الذى قدمت به السيدة زينب الغزالى نفسها فى مذكراتها، وهو يذهب إلى ما لا نوافقه عليه من القول بأن الأخوات المسلمات فى البداية كان عملا دعويا اجتماعيا بالأساس، يهدف إلى الحض على تحقيق العقيدة الصحيحة، والالتزام بمكارم الأخلاق، والقيام بأعمال البر، ومساعدة الفقراء والمحتاجين، وجمع الزكوات وتوزيعها، قبل أن ينغمس سريعا فى السياسة، ربما بقوة دفع الأحداث الكبرى، ومن ضمنها المواجهة مع نظام ثورة يوليو، و«تتحول إلى جزء من حركة أيديولوجية غارقة فى كل معانى السياسة وطقوسها ورموزها».

(٢٠)

لعل أهم ما ترويه السيدة فاطمة عبد الهادى مما لا يتوقعه القراء هو أن السيدة زوجة الإمام حسن البنا كانت بعيدة عن نشاط زوجها تماما: تفرغت لتربية أبنائها تربية حسنة، ولم يكن لها يوما نشاط مع جماعة الإخوان، أو حتى فى حضور دروس الأخوات، وهى تصل إلى أن تقول:

«... وكان الإمام البنا يمازحنى أحيانا فيحكى لى كيف أن زوجته تذهب لشيخ المسجد لتستشيره فى بعض الأمور الدينية ولا تسأل زوجها!».

(٢١)

على أن حسام تمام يورد شهادة مهمة للأستاذ فريد عبد الخالق ضمنها مقدمة خاصة كتبها

للكتاب، وذكر فيها بكل وضوح أن الفضل الأول فى حركة الأخوات المسلمات يعود إلى السيدة آمال العشماوى بنت محمد حسن العشماوى باشا وزير المعارف الأشهر، وهو يقدم هذا الحديث من خلال ما يصفه بأنه حديث عن بيت من أهم بيوت الإخوان:

«... لقد كان أحد بيوت الثراء والسعة فى جماعة الإخوان المسلمين (بيت السيدة آمال العشماوى)، فوالد آمال هو محمد العشماوى باشا وزير المعارف، وزوجها هو منير دلة المستشار بمجلس الدولة، وكان البيت وسيعا وفسيحا، وبه من الإمكانات ما يجعله قادرا فى أى وقت على استقبال الناس والقيام بضيافتهم على أفضل وجه، وهناك بدأت دروس الأخوات الخاصة وأنشطتهن، وكنت (الضمير للأستاذ فريد عبد الخالق) ممن يحضر لإلقاء الدروس عليهن، وكان معنا الأستاذ البهى الخولى العالم والمربى الجليل، وكان مسئولا وقتها عن قسم التربية بالجماعة، وكانت محاضراته مؤثرة وقوية تركز دائما على أمور العقيدة والعبادة ونشر الوعى الصحيح عن الإسلام، ومما أذكره أن بيت آمال العشماوى كان راقيا وبه علامات الثراء والوجاهة، ومنها تماثيل تزين أنحاءه، ولما تكلم البهى الخولى عن حرمة التماثيل وحرمة اقتنائها قامت آمال العشماوى فجمعت كل التماثيل وألقت بها خارج البيت».

(٢٢)

ونأتى إلى قضايا الفكر فى سيرة الأخوات المسلمات معتمدين على المقدمة التى وجد حسام تمام أن الأمور لا تستقيم بدونها، وربما كانت قضية التدين الشكلى هى أهم القضايا التى أشار إليها فريد عبد الخالق فى شجاعة فى سياق تلخيصه لما ينبغى أن يتضمنه كتاب حسام تمام عن تاريخ فاطمة عبد الهادى، وكأنما كان الرجل المجرب الأستاذ فريد عبد الخالق يريد أن يدل الإخوان على أن التدين الشكلى الذى يعرفونه الآن يمثل قضية مناقضة تماما لسر نجاح حسن البنا فى بداية عهد الجماعة، ولنقرأ هذا الذى يقوله هذا الأستاذ.. أى فريد عبد الخالق:

«كانت قضية الحجاب غير حاضرة فى زمننا هذا، مثلا كانت أختى سعاد غير محجبة، وحين خطبها صلاح شادى لم تكن محجبة، وظلت هكذا فترة حتى تحجبت، فيما كانت زوجتى كوثر

الساعى أسبق منها للحجاب، كان يكفى الإيشارب أو غطاء الرأس، وكانت الأخوات كلهن محتشمات بعيدات عن التبرج والابتذال، أما النقاب فلم نسمع به وقتها أبدا، وأستطيع القول: إننا لم نشهد حالة نقاب واحدة، ولم نسمع بمنتقبة، أو نر أختا من الأخوات ارتدت النقاب إلا بعد التغيرات التى شهدتها مصر فى حقبة السبعينيات من القرن العشرين، مع بداية دخول نمط التدين الوهابى القادم من الخليج، والغريب تماما عن نمط التدين فى مصر، ولدى الإخوان المسلمين أيضا، فلم تكن لدينا فى مصر هذه الحالة من الاهتمام بالشكليات كعنوان على التدين، ولم يكن الإمام البنا يهتم كثيرا بالتدين الشكلى، وما زلت أذكر واقعة له مع الأخ محمود سليمان، وكان أحد إخوان كلية الطب، فقد كنت مع الإمام فى المركز العام للجماعة، وفى أثناء خروجنا من المكتب قابلنا الأخ محمود، وكان قد أعفى لحيته فبدا شكله غريبا ومختلفا عما كنا ألفناه، فلما رآه الإمام بادره محمود قائلا: لقد أصبتُ السنّة، فرد عليه الإمام: أصبت السنّة وضيعت الفرض! اذهب واحلق لحيتك وتعال معنا.. أريدك مثل زملائك فى الكلية الذين تدعوهم.. لا يمكن أن تؤثر فى الناس وأنت غريب عنهم! لقد كان الإمام البنا يرفض أن نتميز عن الناس بلباس أو هيئة حتى نظل جزءا من المجتمع».

(٢٣)

وفى هذا السياق نفسه فإن فريد عبد الخالق بأدبه الشديد يروى ما لم يهتم به حسام تمام ولا فاطمة عبد الهادى من تحرير التاريخ الذى يعرفه لنشأة الأخوات المسلمات، مشيرا إلى دور الأستاذ محمود الجوهرى وزوجته:

«كان الأستاذ محمود الجوهرى أول رئيس لقسم الأخوات مكلفًا بمتابعة نشاطهن وربطه بالجماعة، وكان أبرز مَنْ تولى هذه المسئولية، وكانت زوجته السيدة أمينة محمد، وعرفت بأمينة الجوهرى، تساعده فى هذا العمل، وكان صلة الوصل بين الأخوات وبين الإمام البنا الذى كان كثيرا ما تمنعه أعباؤه ومشغولياته الكثيرة عن الحضور وإلقاء المحاضرات الخاصة للأخوات، وكانت الأخوات يعوضن ذلك بحضور الدرس العام للإخوان كل يوم ثلاثاء، وهو الدرس الشهير الذى كان يحاضر فيه الإمام البنا فى مقر الجماعة بالحلمية.. وعرف بحديث الثلاثاء».

(٢٤)

بل إن فريد عبد الخالق يذهب إلى حدود أبعد من هذا فى فهمه لعلاقة الأخوات المسلمات (والمرأة عموما) بقادة الجماعة وروادها فى فترة الأربعينيات من خلال قصة دالة تتعلق به هو نفسه، وبابنة الشيخ حسن البنا:

«... كنت أدرّس مادة الرياضيات لابنة الإمام البنا «وفاء»، كنت أدرّس لها المادة فى المدرسة الثانوية باعتبارى مدرس رياضيات، وكنت أدرّس لها أيضا فى بيتها، ولم تكن هناك مشكلة أو حساسية أن أتردد على بيت الإمام البنا وأدرّس لابنته وأنا شاب فى بداية الثلاثينيات من عمرى، كنت أدخل البيت وأدرّس لها، وكان الإمام ينشغل أحيانا فى عمل مما تزخر به مسئولياته الدعوية، وما أكثرها، وكان إذا حضر وقت الغداء نادى على وتناولنا الغداء معا، لقد كانت الحياة بسيطة بلا تكلف ولا عقد، وكانت تربية العائلات ترسخ فينا معانى الفضيلة والاحترام والنخوة كما كنا مشغولين وقتها بهموم أكبر كالدعوة والنشاط فى الحركة الوطنية، وما كان يخطر ببالى ولا بال أبناء جيلى الاهتمام بأمور تافهة أو شكلية، حتى إننى لا أتذكر شكل وفاء بنت الإمام البنا، ولا أتذكر إذا ما كانت وقتها ترتدى غطاء رأس أم لا، رغم أننى فكرت أن أتزوجها، وأذكر وقتها أننى فاتحت الإمام البنا بشأن الزواج بها فسألنى إذا ما كنت أطلبها هى بشكل خاص لعاطفة عندى، أم مجرد زواج، ولما علم أننى فقط أفكر فى الزواج بها لاعتبارات كرم الأصل، وطيب الخلق، وأن ليس فى عاطفتى شىء خاص لها، اعتذر بلباقة، وقد كان – رحمه الله – أحرص ما يكون على مشاعرنا، وقد فهمت وقتها أنه ربما كان أحد الإخوة قد سبقنى إلى طلبها، وهو الأمر الذى يبدو أنه وقع فعلا، فقد تزوجها فيما بعد الأخ الكريم الأستاذ سعيد رمضان، وكان من أكثر تلامذة الإمام البنا نجابة وقربا منه».

(٢٥)

وننتقل إلى صاحبة السيرة وما روته للأستاذ حسام تمام مما سجله على طريقته، ونحن نلاحظ أنها تعتمد على ذاكرتها فى حصر المؤسسات الأوائل لتنظيم الأخوات المسلمات فتقول:

«كان عددنا ست أخوات كما أسلفت: أمينة الجوهرى، وفاطمة توفيق، وفاطمة البدرى، وزينب زوجة الشيخ الشعشاعى، وأخت الأخ محمود سعيد، وأنا فاطمة عبد الهادى، وصرنا فيما بعد نواة قسم الأخوات المسلمات، وأول مَنْ بدأن العمل النسوى المنظم فى الجماعة، قبلنا بسنوات كان هناك تجمع للأخوات المسلمات لم نلحق به، وكانت رائدته الحاجة لبيبة أحمد رحمها الله، لكنه لم يكن جزءا من تنظيم الإخوان، بل كان تعاونا بينها وبين الشيخ البنا، أما تجمعنا نحن فكان تابعا مباشرة وبشكل منظم للإخوان، وكان مسئولا عنه الأستاذ محمود الجوهرى، ويتابعه مباشرة المرشد الشيخ حسن البنا».

(٢٦)

وتحرص فاطمة عبد الهادى على تحرير القول فى العلاقة بين السيدة زينب الغزالى وبين الإخوان فى هذه الفترة فتقول:

«وللتاريخ أيضا أقول: إن الأخت زينب الغزالى كان لها نشاط فى الدعوة الإسلامية بين السيدات، لكنه كان مستقلا عن جماعة الإخوان، ولم تنضم إليها إلا متأخرا بعد وفاة الشيخ حسن البنا، وأذكر فى أثناء دخولى الإخوان سنة ١٩٤٢ أن الأخت زينب كانت قد أسست جماعة السيدات المسلمات، وكان لها نشاط كبير، فقلت وقتها للشيخ حسن البنا: لماذا هناك انقسام فى الدعوة؟ ولماذا لا تنضم إلينا الأخت زينب الغزالى؟ فقال لى: والله يا أخت فاطمة نحن عرضنا عليها ذلك، وعرضنا أن تكون مسئولة عن قسم الأخوات، لكنها اشترطت أن نطلق عليه «السيدات المسلمات»، فقلنا لها نحن الإخوان المسلمون وستظل الجماعة كما هى، وسيكون هناك قسم للأخوات أنت رئيسته أو المسئولة عنه، فرفضت، ولم تلحق بالجماعة إلا عام ١٩٦٥».

(٢٧)

أما أطرف ما تقدمه هذه المذكرات فهو ما ترويه السيدة فاطمة عبد الهادى عن قصة مشاركة إحدى زوجات رؤساء الوزراء فى مصر وزعماء الحزب السعدى الذى كان على علاقة متوترة

بالإخوان، وهو إبراهيم عبد الهادى باشا فى تشجيع نشاط الأخوات المسلمات، وهو الأمر الذى اكتشفته الشرطة المصرية اليقظة:

«وقد انضمت إلينا أيضا الأخت رئيفة شاكر، أخت الأخ صلاح شادى، وأختها دولت هانم زوجة وزير الداخلية إبراهيم عبد الهادى، كانت تقوم بإرسال صفائح الزيت والدقيق والسكر وغير ذلك من المواد التموينية بسيارتها ليتم توزيعها على الفقراء».

«والطريف أنه لما صدر قرار حل الجماعة استمر عملنا تحت لافتة الأخوات المسلمات، وإن ظلت الدار تحت مراقبة البوليس، فقام المخبر المكلف بالمراقبة بالتقاط رقم السيارة التى تحمل تلك المواد التموينية وأرسلها للمباحث، وكانت المفاجأة أنها سيارة إبراهيم باشا عبد الهادى وزير الداخلية! فما كان من المباحث إلا أن رفعت لافتة الأخوات المسلمات وأرسلوا لجنة من جمعية سيدات مصر التى تسلمت الدار التى كانت تابعة فعليا لجماعة الإخوان الصادر قرار بحلها، وأرادت اللجنة ضم الدار إلى الشئون الاجتماعية، وجاءت لجنة من السيدات لهذا الغرض، فقامت الأخت آمال العشماوى بالاتصال بوالدها وزير المعارف الذى كان يرأس أيضا رابطة الإصلاح الاجتماعى، وطلبت منه ضم الدار إلى تلك الرابطة حتى يستمر نشاطها، ففعل مشكورا، وكنت ممن انتدبهن للعمل مديرة لهذه الدار، واستمر ذلك لمدة تسع سنوات».

(٢٨)

وفى حديثها عن دار الأخوات المسلمات بالمنيرة (وهى الدار التى لم تحظ حتى الآن بما تستحق من تخليد جماعة الإخوان المسلمين لإحدى مؤسساتها الرائدة) تشير فاطمة عبد الهادى إلى أن إقبال عائلة المرشد الثانى (المستشار حسن الهضيبى) على حركة أو توجه الأخوات المسلمات جاء طبيعيا، كما أنه تطور طبيعيًا إلى مرحلة الترحيب بالحجاب:

«ومما أذكره عن عملنا فى هذه الدار الجديدة بالمنيرة أننى تعرفت فيها إلى نساء بيت الأستاذ حسن الهضيبى المرشد الثانى للجماعة، وكن جميعا أهل فضل وتقوى وخلق، أذكر أنه لما أنشأنا الدار كانت الأخت سعاد الهضيبى قد عُينت طبيبة فى مستشفى أبو الريش للأطفال القريبة من الدار، وذات مرة كانت تمر فى طريق الدار فقرأت إعلانا يقول: «دار التربية الإسلامية للفتاة»،

فجاءت وقابلتنى وقالت: إن أختها خالدة تميل لهذه الأمور، ولديها اهتمام بموضوع التربية الإسلامية، وإنها سترسلها لزيارتى، ثم جاءت خالدة الهضيبى التى قالت لى: إن أباها أيضا يحب هذا التوجه فى تربية الفتيات، ولم يكن الأستاذ حسن الهضيبى قد دخل الإخوان بعد، ثم أخبرتنى أنها حدّثت أمها عنى وهى تدعونى على الغداء، وذهبت فعلا لتلبية الدعوة، وكان آل الهضيبى من سكان مصر الجديدة، وجلس الأستاذ حسن الهضيبى يتحدث إلى حديثا طيبا ومشجعا، ومن ساعتها دخلت خالدة معنا الأخوات، فكانت أول فرد من آل الهضيبى ينضم إلى جماعة الإخوان، ثم توالى دخولهم بعد ذلك».

(٢٩)

وتشير فاطمة عبد الهادى على استحياء وباقتضاب إلى معاناتها مع عدد من مظاهر «الجاسوسية» التى تعرضت لها على مدى حياتها فى الأخوات المسلمات، وتختم حديثها هذا بقولها:

«... كانت المباحث لا تكف عن محاولة الحصول على كل المعلومات عنا، حتى إنهم عندما اعتقلونا عام ١٩٦٥ دسوا علينا إحدى الفتيات كجاسوسة علينا فى قسم مصر القديمة قبل ترحيلنا إلى سجن النساء فى القناطر، وكانت تنقل لهم كل ما يدور بيننا».

«بل إن الأكثر وقاحة من ذلك أن المباحث حاولت أن تدفعنا للعمل معها جواسيس على الإخوان، وأذكر بعد إعدام زوجى الشهيد أن المباحث حاولت أن تغرينى للتعاون معهم بنقل أخبار الأخوات الخاصة بالنواحى الاجتماعية، فما كان منى إلا أن صرخت فيهم وقلت لهم: تريدون منى أن أتجسس على الإخوان بعد أن استشهد زوجى فى سبيل هذه الدعوة؟! والله لا يكون ذلك أبدا».

(٣٠)

وتحفل هذه المذكرات بالجوانب المثيرة لمشاعر الأسى والشفقة لما حاق بأسر الإخوان على يد النظم البوليسية فى عهد ثورة ١٩٥٢، وتقدم فاطمة عبد الهادى لنا على سبيل المثال نموذجا لأزمة أسر الإخوان المسلمين مع نظام عبد الناصر من خلال قصة شقيقتها خيرية وزوجها

عبد اللطيف مكى، ومع أنها تروى ما يسبب الألم والشجن فإننا نراها حريصة أيضا على راوية النهايات الجميلة لهذه القصة:

«وقد لامتنى أختى خيرية كثيرا على تشجيعى له (أى لزوجها عبد اللطيف مكى: زوج خيرية) على السفر، خاصة أنها كانت قد أنجبت وقتها ولدا (أحمد سيف الإسلام) وبنتا (ثريا)، وكانت قلقة من تحمل مسئولية الطفلين وحدها، فطمأنتها وقلت لها سيرجع لك إن شاء الله».

«فيما بعد مضت الأحداث سريعا، واتصل به الأخ عبد البديع صقر عارضا عليه أن يعمل معه فى قطر، فانتقل إلى هناك ليعمل فى المعهد الدينى، ثم أرسل إلى زوجته لتستعد للسفر إليه، لكن الحكومة قامت وقتها بسحب الجنسية منه ومن عدد من الإخوان، فعرض عليه القطريون الجنسية القطرية فرفض وظل بلا جنسية، ورفضت وزارة الداخلية طلبه بأن يسمحوا لزوجته وولديه بالسفر».

(٣١)

هكذا كان على أخت فاطمة عبد الهادى أن تعيش ممنوعة هى وولداها من السفر إلى زوجها فى قطر، فقد كان الزوج قد أصبح مصريا سابقا (بعد سحب الجنسية منه)، وها هو الفرج يأتى على يد والدة زكريا محيى الدين:

«ومن أقدار الله أننى كنت وقتها قد نُقلت للعمل فى مصر القديمة، وكنت أجلس ذات يوم مهمومة بشأن أختى وكيف أجمع شملها مع زوجها، وذهبت أبث شكواى لإحدى الزميلات فسمعتنى حكيمة (ممرضة) كانت تعمل معنا، وإذا بها تقول لى: أنا سأجعلها تسافر! للوهلة الأولى ظننتها تسخر منى، لكنها أخبرتنى أن والدتها تقوم بتفصيل ملابس لوالدة زكريا محيى الدين وزير الداخلية، وأنها ستطلب منه هذا الطلب، وفعلا قامت السيدة مشكورة برجاء أم زكريا محيى الدين فطلبت من ابنها أن يسمح لأختى بالسفر، فنزل على طلب والدته وأرسل إلى كارت توصية، كان له فعل السحر فى موظفى وزارة الداخلية، الذين أسرعوا بإنهاء إجراءات سفرها فورا، ولكنهم اشترطوا عليها أن تسافر بلا عودة لأن زوجها بلا جنسية.. فوافقت».

«استقر بهم المقام فى قطر، وتخرج سيف الإسلام طبيبا وتزوج ابنة الشيخ يوسف القرضاوى، كما تخرجت ثريا طبيبة وتزوجت المستشار محمود عبد العال، كما أنجبا هناك فاطمة وحسام وإقبال».

«وقد أرسلوا ذات عام إلى والدتى لقضاء الصيف معهم فى لبنان لأن خيرية كانت تشتاق لرؤيتها، وأرسلوا لها تذاكر الطائرة، وقضت الصيف معهم حيث كان الأخ عبد اللطيف يخشى أن يقضى الصيف فى مصر فيُعتقل».

(٣٢)

ثم يأذن الله أن تعود إلى زوج أختها عبد اللطيف (وأسرته) الجنسية على يد أنور السادات، على نحو ما سافرت إليه زوجته على يد زكريا محيى الدين، وهكذا نفهم أن تسريبات النظام الناصرى كانت كفيلة بحل بعض المشكلات الإنسانية:

«وقد استمر ذلك الوضع حتى عام ١٩٦١ حين زار السادات قطر فقدم له عبد اللطيف التماسا ليعيد إليه الجنسية بناء على نصيحة أمير قطر، وكان عبد اللطيف يعمل مدير التغذية بوزارة المعارف، فأشار عليه الأمير أن يقدم له الالتماس، وقد كان.. وعادت له الجنسية، وبدؤوا فى قضاء الصيف مجددا فى مصر بدءا من عام ١٩٦٢ لكنه اعتُقل مرة أخرى سنة ١٩٦٥ فى أثناء قضائه الصيف هنا، ولم يطل اعتقاله بفضل الله».

(٣٣)

وعلى خلاف ما نتصور من مذكرات كتبها محررها منحازًا إلى ما صوره وذهب إليه من انتشار المد السلفى بين الإخوان المسلمين، فإن فاطمة عبد الهادى تحرص (على يد حسام تمام نفسه) على أن تخصص جزءا من حديثها لذكر أمجادها فى نشر الدعوة عبر المسرح كما تقول، ومع أن الفكرة بسيطة، بل أقرب إلى السذاجة المسرحية، فإن كاتب السيرة قد أبدى اهتماما شديدا بها على نحو ما نرى:

«.... وذات مرة اقترحت على الأخوات فى القسم تنظيم حفل لمدرسة البنات، فنظمنا حفلة

كبيرة، قدمت فيها لأول مرة عملا مسرحيا، حيث أخرجت ثلاث مسرحيات هى: «قل هو الله أحد» و«القرآن الكريم» و«بلال»، وكان فى إحداها مشهد تأتى فيه فتاة لقارئة الفنجان فتقول لها: ألم تسمعى بحديث رسول الله ﷺ؟ فتقول لها: ما هو؟ فترد: «مَنْ أتى عرافا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد»، وأذكر أن بنات الشيخ أحمد حسن الباقورى (الذى ترك الإخوان فيما بعد) كن غير محجبات، وكنت كلما حاولت أن أكلمهن فى تغطية الشعر أجد منهن رفضا، فأتيت فى مسرحية «قل هو الله أحد» بمشهد تقوم فيه فتاة بدور ابنة شيخ الأزهر (وقد أدت الدور الأخت محاسن حمودة، وكانت أصغرنا سنا)، وكانت الفتاة فى المسرحية ترتدى ملابس أنيقة، لكن من غير غطاء للشعر، فتدخل بدون حجاب وتأخذ أخت أخرى تحدثها عن ضرورة الحجاب، وتتلو عليها آيات الحجاب وتطلب منها التوبة والاستجابة لأمر الله، وتتلو عليها قول الله (تعالى): (إلا مَنْ تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما)، فتقرر الفتاة المتبرجة التوبة وتسأل عن الأخوات المسلمات وعن موعد لقائهن ومكانه، ثم تلحق بهن».

(٣٤)

هكذا نرى سيطرة فكرة الحجاب إلى الحد الذى يجعل تأجيله نوعا مما يستحق التوبة على حد ما توحى به عبارات فاطمة عبد الهادى.

وهى تمضى فى حديثها عن إعدادها للمسرحيات (البسيطة) فتقول:

«لقد كنت آخذ نصوص تلك المسرحيات من كتب المطالعة المقررة وأقوم بإجراء تعديل فيها بحيث تصبح ذات معنى إسلامى، وكان مَنْ يمثل شخصيات بلال أو عمر أو غيرهما من الصحابة بعض أطفال أقاربنا، وقد تطور مسرحنا كثيرا لكنه كان مقتصرا على المدارس والأعمال الخيرية، وقد علمنا فيما بعد أن الأستاذ عبد الرحمن البنا شقيق المرشد الشيخ حسن البنا، كان قد أسس مسرحا هو الآخر، ولكن الأخوات لم يكن يشتركن فيه أو يشاهدنه».

(٣٥)

وتردف فاطمة عبد الهادى هذا الحديث برواية واقعة كاشفة عن مدى تغلغل الحماس فى نفوس الإخوان، وهو ما كان المسرح بالطبع كفيلا بإبرازه حتى مع كل الاحتياطات النفسية التى تدرب عليها الإخوان وأجادوها:

«ومن طريف اهتمامى بالمسرح أنه فى نهاية عام ١٩٤٨، وبعد قرار حل جماعة الإخوان، أخرجت مسرحية اسمها «القرآن»، وكانت تُؤدى فى مدرسة هدى شعراوى، وكان الجمهور من الرجال والنساء، وكان من الإخوان مَنْ أراد الحضور، ومنهم أحمد فراج الذى صار فيما بعد مذيعا لامعا، وقلت له: يا أخ أحمد.. هناك مشهد فى المسرحية سيبهرك فاملك نفسك ولا تردد «الله أكبر ولله الحمد»، وكان هذا شعار الإخوان الشهير، ولما كانوا يعتقلون الإخوان فقد كانوا يعتقلون كل مَنْ يردده، فكنا نتحايل على ذلك ونقول «الله أكبر» فقط! وكنت قد دعوت الأخت آمال العشماوى التى ساعدتنى كثيرا فى الإعداد لهذا الحفل، حتى إنها اشترت البيانو على نفقتها، كما حضر والدها العشماوى باشا ودعا بعض الوزراء للحضور».

«كانت المسرحية متقنة جدا (هكذا تقول وهى تقصد اتقان الحبكة بالطبع)، وراقية الأداء، ولما وصلنا إلى مشهد نزول القرآن وأنيرت الأضواء مسلطة عليه، ما كان من الأخ أحمد فراج إلا أن تأثر بشدة ووقف وهو يهتف «الله أكبر ولله الحمد»! وتوتر الجو كثيرا بهذا الهتاف المعروف للإخوان المسلمين، وقد عاتبنى العشماوى باشا على ذلك بسبب الإحراج الذى تعرض له مع الوزراء، فاعتذرت له وقلت: إننى نبهت عليه ولكنه لم يلتزم».

(٣٦)

والشاهد أن السيدة فاطمة عبد الهادى تتحدث عن عائلة سيد قطب بكل ما تملك من إعزاز وتقدير وهى تتحدث عن شقيقتيه أمينة وحميدة بتفصيل بل هى تشير أيضا إلى أختهم الكبيرة السيدة نفيسة:

«... ورغم أنهما لم يكملا تعليمهما، إلا أن مستواهما فى الثقافة والأدب كان لا يبارى».

«وكانت أمينة لها نفسية شاعرة ومرهفة، وكانت راقية ورقيقة، ولديها طول بال، وهدوء غريب، وكثيرا ما جاءت لمواساتى بعد استشهاد زوجى مع أخيها الشهيد سيد، وكانت تقرض الشعر خاصة عند استشهاد زوجها الأستاذ كمال السنانيرى عام ١٩٨١، وقد أهدتنى يوما نسخة من أحد دواوينها كتبت فيها إهداء راقيا قالت فيه: إلى مَنْ سبقتنى فى ساحة الجهاد»..

وكانت كثيرا ما تسألنى كيف صبرت لنصبر مثلك؟!».

«ومما أذكره للأخت أمينة قطب أنه لما صدر حكم الإعدام على أخيها الشهيد طلبوا منها أن تحثه وتقنعه بالاعتذار لينال العفو، لكنها رفضت بحزم».

«أما الأخت حميدة التى تزوجت فيما بعد الأخ الدكتور حمدى مسعود، فقد كانت نعم الأخت تضحية وجهادا، كما دخلت السجن الحربى فى قضية تنظيم ١٩٦٥، وحكم عليها بالسجن مدة عشر سنوات، ومازلت أذكر كيف كانت تعد معنا الطعام، وتذهب معنا للسجن لإطعام مسجونى الإخوان فى قضايا عام ١٩٥٤، كما أذكر أننا كنا معا فى أثناء مجزرة ليمان طرة التى قُتل فيها كثير من الإخوان، وكنا أمام السجن نبحث عن طريقة لتوصيل الطعام لما بدأ إطلاق الرصاص، فأخذنا فى الفرار بعيدا عن السجن وأخذت المباحث تطاردنا أنا وهى، وقد كان لها ذكاء ونجابة أكرمنا الله بها لنهرب من المطاردة، ولم تنجب أمينة أو حميدة ذرية لهما، وقد توفيت أمينة قبل أعوام فيما تعيش حميدة مع زوجها فى فرنسا.. أمد الله فى عمرها».

«كما كانت لهما أخت ثالثة كبرى اسمها نفيسة دخلت هى كذلك السجن الحربى، وهى أم رفعت الذى قتل تحت وطأة التعذيب فى المعتقل، وأم الدكتور عزمى بكر الذى تسلم جثة الأستاذ كمال السنانيرى بعد مقتله فى عام ١٩٨١ تحت التعذيب فى السجن».

(٣٧)

على أن قارئ هذه المذكرات ربما يعجب وله أن يعجب من أن يهمل محررها الأستاذ حسام تمام ذكر أسماء بعض الإخوان المسلمين البارزين فى مواضع لا يجوز إهمال ذكر أسمائهم فيها، وهو على سبيل المثال يهمل ذكر اسم أحد الذين أعدموا مع عبد القادر عودة، مع أنه كان لابد من ذكر اسمه تكريما أو تقديرا أو إثباتا للواقع، وانظر إلى هذه الفقرة:

«... وكان ممن يحضرن الدرس إضافة للأخت زينب زوجة الشيخ الشعشاعى الأخت أمينة محمد زوجة الأستاذ محمود الجوهرى، الذى كان حلقة الوصل بين الأخوات والمرشد العام الشيخ حسن البنا، والأخت فاطمة البدرى التى زوجناها فيما بعد لأحد الإخوة، وكان يعمل محاميا، وقد أعدم - رحمه الله - فيما بعد مع الشهيد الأخ عبد القادر عودة فى أول صدام مع الثورة، وقد كان مسئولا عن محمود عبد اللطيف الذى اتهم فى محاولة اغتيال جمال عبد الناصر فى حادثة المنشية».

نحن نعرف أن المسئول عن محمود عبد اللطيف كان هو الأستاذ هنداوى دوير المحامى، فهل هو المقصود فى هذه الفقرة؟ ولماذا أهمله الكتاب مع أن اسمه مميز يصعب إهماله؟

(٣٨)

ومن طرائف هذه المذكرات ما ترويه السيدة فاطمة عبد الهادى من أنها استجارت بأنور السادات حين كان جارها فى السكن فى بداية عهد ثورة يوليو ١٩٥٢ وذلك عندما كانت معرضة للاعتقال عند بدء اعتقالات الإخوان المسلمين، ومحاولة الأمن القبض على زوجها الذى كان هاربا، وهى تشير فى روايتها لهذه القصة التى لم تكن مضطرة إلى روايتها إلى أن أنور السادات كان يتمتع بالمروءة:

«عانيت كثيرا من مضايقات المباحث وحصارها لى فى أثناء محاولاتها القبض على زوجى، بل وصل بهم الأمر ذات يوم أن فكروا فى أخذى كرهينة لإجباره على تسليم نفسه، كنت وقتها أقوم بمهمة إعداد الطعام للمعتقلين من الإخوان، وكانت دائما معى أختى كاميليا وابنتى سمية لا تفارقنى، وكان يقوم بحمل الطعام عنا إلى السجن إليهم رجل طيب اسمه حمزة، لم يكن من الإخوان، لكنه كان لا يتأخر عنا بخدماته العظيمة».

«وفوجئت ذات مرة ونحن عائدات إلى المنزل بأربعة من الرجال أحاطوا بنا على باب بيتنا مثلما تحيط الشبكة بصيدها، ونادى أحدهم على مخبر الحراسة الخاصة بأنور السادات ليحضر تاكسى فرفض الرجل، فصرخت فيه بصوت عال: لمن يحضر التاكسى؟ قال: لتركبى فيه، فقلت له: بل تركب فيه أمك أو أختك أما أنا فلا، فقال: بل ستركبين رغما عنك، فخرجت عن شعورى وصرخت بأعلى صوتى وقلت: إن الظفر الذى يطير من قدمى يساوى رئيس جمهوريتكم الذى

يهين الإخوان! أنتم تضعون لافتة «ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد»، ونحن فى أذل العهود! خرجت تماما عن إرادتى، وناديت بأعلى صوتى: انزل يا أنور السادات يا رئيس المؤتمر الإسلامى.. أجر امرأة جارة لك».

«وإذا بأنور السادات ينزل من السلم ويسأل عما يحدث فقلت له: انظر بنفسك.. تهان النساء فى عهدكم الأسود.. وكررت الجملة عليه مرتين، وللحق فقد كان فى الرجل مروءة وبدا عليه الاستياء مما رآه، فطلب منهم عدم التعرض لى ونادى على أحد الضباط وقال له: انظر ماذا تريد الست وافعله».

(٣٩)

تلخص فاطمة عبد الهادى فى هذه المذكرات ما حدث من اعتقالات لسيدات الإخوان المسلمين على نحو معبر وقاس فى تعبيره وتقول:

«حين وصلنا إلى سجن النساء وجدنا أن المباحث قامت باعتقال عشرات الأخوات من معظم أنحاء البلاد تقريبا، بل واعتقلت أمهات أو شقيقات بعض الإخوان، ولم يكن لهن أى صلة بالجماعة، هذا غير بعض الأخوات اللاتى تم اتهامهن رسميا فى القضية التى عرفت بتنظيم ١٩٦٥ مثل الأخت زينب الغزالى، والأختين أمينة وحميدة شقيقتى الأستاذ سيد قطب، أبرز المتهمين بتهمة محاولة قلب نظام الحكم!».

«كان معنا فى سجن القناطر كل نساء عائلة المرشد الأستاذ حسن الهضيبى تقريبا: كانت معنا زوجته أبلة نعيمة خطاب، وكان عمرها نحو سبعين عاما، وقد مكثت فى سجن القناطر حوالى ستة أشهر ثم رحلت إلى السجن الحربى، وتم التحقيق معها ولم يرحموا سنها ولا صحتها، وعاشت معنا فى معتقل سجن النساء بالقناطر فترات عصيبة».

«كما اعتقلت معنا أخت فضيلته السيدة بهية إسماعيل الهضيبى، وكانت قد جاوزت السبعين عاما هى الأخرى، وكنا وكل الإخوان نناديها باسم «عمتى بهية» احتراما لها، ولم يكن لها نشاط يذكر مع الأخوات المسلمات، لكنهم اعتقلوا نكاية فى شقيقها، لقد قبضوا عليها وهى تساعد زوجها فى زراعة الأرض بقريتها عرب جهينة بمحافظة القليوبية».

«كما اعتقلوا ابنته الأخت خالدة الهضيبى (ابنة المرشد حسن الهضيبي)، وكان عمرها أربعين عاما، وهى زوجة الأخ المهندس أحمد ثابت، ووالدة صفوان ثابت رجل الأعمال المعروف الآن، كما اعتقلوا ابنته الثانية علية الهضيبى، التى كانت مازالت عروسا وكان اعتقالها بسبب صداقتها بالأخت غادة عمار زوجة الطيار يحيى حسين، وقد أدخلتا ضمن القضية وسجنتا معا فى السجن الحربى».

«لقد اعتقلوا نساء بيت الأستاذ الهضيبى بتهمة أنهن كن ينشطن فى رعاية عائلات الإخوان المعتقلين من سنة ١٩٥٤، وكفالتهم ماديا، وكانت أبلة نعيمة زوجة المرشد قد أشرفت على إنشاء مشغل تعمل فيه الأخوات للإنفاق على تلبية حاجة العائلات الإخوانية».

(٤٠)

وهى تلخص الموقف كله بما يجعلنا نقول معها : «لا حول ولا قوة إلا بالله».

«وفى المعتقل كانت معنا كل الأخوات المسئولات عن العمل النسائى فى الجماعة تقريبا، لقد اعتقلوا معنا الأخت آمال العشماوى بنت العشماوى باشا وزوجة الأخ منير دلة، وكان لها نشاط بارز فى إعالة الأسر الفقيرة والمحتاجة من الإخوان، والأخت أمينة زوجة الأخ محمود الجوهرى مسئول الأخوات المسلمات، وقد أخذوها من معتقل سجن النساء فى القناطر إلى السجن الحربى للتحقيق معها ثم أعيدت لنا».

ومرة أخرى نردد: «لا حول ولا قوة إلا بالله»».

■ ■ ■

الباب الرابع

التأريخ المبكر للثورة المصرية

الفصل الثامن

يوميات من ميدان التحرير

كتاب الأستاذ سعد القرش

(١)

نجح سعد القرش فى أن يقدم كتابا من كتب التاريخ الحى، لا تكاد تجد فيه أى أثر من آثار التاريخ غير الحى، ولا من آثار التجميل أو التزييف أو التحوير، أو التنميط، وإنما هو قطعة من الحياة على نحو ما مضت، ومن الثورة على نحو ما نجحت، وعلى نحو ما لا تزال تنجح، ذلك أن مؤلفه الأديب والقاص المتمرس شارك بالفعل فى صناعة الثورة نفسها، وفى تهيئة الروح التى دفعت إلى الثورة، وفى تأهيل هذه الروح بتشخيصه الدقيق لأسباب التذمر المعلن التى دفعت إلى الثورة، ولأسباب اليأس وأسباب الأمل التى قوت عزيمة القائمين بها، وجعلتهم يدركون الحقيقة التى يجادل فيها كثيرون: هل كانت الثورة حتمية؟

يجادلون فى هذا بينما كان مؤلف هذا الكتاب قد أفنى بالفعل وبالقول أكثر من خمس سنوات من حياته ليثبت للجميع أن الثورة باتت حتمية، فإذا بالثورة تفاجئه قبل أن يعلن للناس حقيقة ما توصل إليه.

كان سعد القرش طيلة السنوات التى سبقت الثورة يجمع الدليل مع الدليل، ويؤكد بالاستنتاج على ما سبقه من استنتاجات أخرى تقول: إن الأمور وصلت إلى طريق لابد فيه من الثورة، ولم يكن سعد يبخل على مناقشيه بكل ما يراه دليلا لا يقبل النقض على سلامة طرحه، وعلى ضرورة الثورة، وكان يؤكد لنفسه قبل أن يؤكد للناس على أن الأمور سارت فى طريق لا يحتمل غير الثورة.

(٢)

وليس سرا أن سعد كان يقابل كثيرا من المحاولات المهدئة أو المثنية لكنه كان قد رزق هداية إلهية تؤكد له صواب ما استنتج وقرر، وتؤكد له دقة تشخيصه، وحتمية الأخذ بما أخذ به نفسه من ترفع على الفاسدين دون جهر، ومن احتقار المفسدين دون صدام، ومن وصف الفساد والاستبداد بالوصف الصادق دون مبالغة.

هكذا عاش سعد القرش سنوات ما قبل الثورة المصرية الأخيرة ثائرا متحفزا، ثم عاش الثورة نفسها مشاركا مخلصا، ثم ها هو يضيف إلى هاتين الحقيقتين، وهذين المجدين مجدا جديدا حين يؤرخ لنفسية الثائرين فيما قبل الثورة، وفى أثنائها، تأريخا أدبيا دقيقا يستعرض فيه العجب والتعجب والإعجاب، ويستدعى فيه الذكرى والتذكر والذكريات، ويروى فيه خيانة المثقفين، وجناية الأدباء، وبلادة المسئولين، وتبلد الكبار، وهو لا يبخل علينا بما نسقه من أرشيف الفساد، ولا بما سجله من تاريخ الطغيان، ولا بما خبره من شعور المواطن الشريف بظلم المسئول، وتجاهل الرئيس، وطغيان الابن، وسطوة الزوجة، وجهل الحكام.

(٣)

يكتب سعد القرش ذكرياته عن الثورة وعن مقدماتها مستمدا طاقته فى تجسيدها من كل ما رزق به أديب عفى مثله من قدرة على التصوير، وعلى التعبير، وعلى الدفاع عن وجهة نظره، وعلى بناء تصوراته وتصويراته، وهو يفعل كل هذا بشعور مخلص للوطن الجميل الذى أحبه وذاب عشقا فيه، وتمنى له أن يكون كأفضل ما يكون.

يسجل سعد القرش حبه لوطنه فى كل سطر يكتبه، وحبه لأهله مع كل أمنية يتمناها، بل هو يسجل هذا الحب مع تذكره الواعى لكل صفعة يتلقاها من الحاضر القاسى، وهو حين يتذكر الماضى لا يسقط فى براثن الإحباط ولا اليأس، وإنما يتخطى هذا فى سهولة إلى مرحلة يشع فيها بالأمل الواثق، والأمانى المشروعة، والأحلام الجميلة.

ومن الحق أن نقول إن إحساسنا بالثورة المصرية الجديدة لا يكتمل إذا نحن لم نقرأ سعد

القرش فى كتابه المؤرخ لها ولمقدماتها، كما أن إحساسنا بانتصار الإنسان لا يتعمق دون أن نطالع تصويره الدقيق، كما أن حماسنا لأيامنا المقبلة لا يزداد صدقا ما لم نتأس بهذه الكتابة الواعية، والرواية الصادقة.

ولست أحب أن أهنئ سعدا بكتابه إلا إذا هنأت الثورة بابنها وأملها.

(٤)

يذهب سعد القرش فى كتابه عن الثورة إلى أن يروى ما كان قد انتواه قبل الثورة من إصدار كتاب له عن حسنى مبارك يقارن فيه بينه وبين الخليفة عبد الملك بن مروان، مشيرا إلى ما كان يتنبأ به من سقوط أى دولة يحكمها رئيسان:

«كنت قد استعددت لكتاب «كلام للرئيس.. قبل الوداع»، جمعت أوراقا وقصاصات وكتبا، وسجلت ملاحظات، وشرعت فى كتابة هذه «الشهادة» على أن تكون نوعا من المصارحة والمكاشفة، أو الجرد الشامل لثلاثين عاما من التخريب المنظم للدولة، ودفع جيوش السوس للنخر فى أصولها وثوابتها، لدرجة تصل إلى الخيانة العظمى، كنت أريد أن أضع مرآة أمام الرئيس، أذكره بشعارات رفعها فى بداية حكمه، سجلت أيضا طرفا من سيرة عبد الملك بن مروان، وبعضا من مصائر أبطال «ألف ليلة وليلة»، وصدام حسين، وكيف تنتهى النظم التى يحكمها رئيسان.. مسن يعانى الشيخوخة، ويتواطأ على الفساد ليدوم ملكه، ورئيس فعلى طموح دموى الطباع».

(٥)

ويؤصل سعد القرش للفكرة التى استولت عليه مستمدا تأصيلاته من كتب التاريخ الإسلامى الحافلة بالقدرة على إظهار المفارقات الطريفة:

«يروى السيوطى أن عبد الملك بن مروان «كان عابدا زاهدا ناسكا فى المدينة قبل الخلافة.. وقال نافع: لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميرا ولا أفقه ولا أنسك، ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان»، وقال عبد الملك لجندى من جيش أرسله يزيد بن معاوية لقتال عبد

الله بن الزبير، حين قابله فى المسجد النبوى: «أتدرى إلى من تسير؟ إلى أول مولود فى الإسلام، وإلى ابن حوارى رسول الله، وإلى ابن ذات النطاقين (أسماء بنت أبى بكر الصديق)، وإلى مَنْ حنكه رسول الله، ثكلتك أمك، أما لو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبهم الله جميعا فى النار».

ثم يفاجئنا سعد القرش المفاجأة القاسية حين يروى بقية القصة:

«وكان عبد الملك يقرأ القرآن، حين بلغه أنه بويع، فأطبق المصحف وقال: «هذا آخر عهدنا بك»، وفى العام الثانى لولايته ألقى خطبته قائلا: «أما بعد، فلست بالخليفة المستضعف (عثمان)، ولا بالخليفة المداهن (معاوية)، ولا بالخليفة المأفون (يزيد)، ألا إنى لا أداوى أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم.. والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه، ولم يبال بقوله القيم بحق عبد الله بن الزبير، وجهز له جيشا يقوده الحجاج بن يوسف، وحاصره بمكة شهرا، ثم ظفر به وقتله وصلبه».

(٦)

وسرعان ما يلج سعد القرش إلى المعنى الواضح الذى يريد الحديث فيه فيقول:

«أردت أن أذكر الرئيس ببداياته المبشرة، وكيف انقلبت الشعارات كوارث، فبعد تنصيبه رئيسا قال: «لن أرحم أحدا يمد يده إلى المال العام، حتى لو كان أقرب الأقرباء، إننى لا أحب المناصب، ولا أقبل الشللية، وأكره الظلم، ولا أقبل أن يظلم أحد، وأكره استغلال علاقات النسب»، (صحيفة مايو ١٨/ ١٠/ ١٩٨١)، كما صرح لمجلة (أكتوبر) قائلا: «لن أقبل الوساطة، وسأعاقب لصوص المال العام» (٢٦/ ١٠/ ١٩٨١)، وفى الشهر نفسه قال لمجلة (المصور): «مصر ليست ضيعة لحاكمها» (٣٠/ ١٠/ ١٩٨١)، وفى خطبة له فى فبراير ١٩٨٢ قال: «الكفن ما لوش جيوب، سنعلى من شأن الأيادى الطاهرة».

«لكن طول بقاء مبارك فوق الكرسى أدى إلى تكاثر الطحالب، وتكالب ذوى المصالح، وتقنين الفساد حتى أصبح فسادا عاريا لا يتوارى ولا يخجل، بل يفرض نفسه فى وقاحة وقدر غير مسبوق من الفجور والشراسة، وحين سمع بالكلام عن النهب المنهجى لثروات مصر،

عمد مبارك إلى تنفيذ نظرية معاوية، فلا يحول بين الناس وبين ألسنتهم ما داموا لا يحولون بينه وبين الكرسى».

(٧)

ويجيد سعد القرش تصوير تدهور مصر فى عهد مبارك على نحو ما شهده هو نفسه بنفسه فيقول بضمير الراوى:

«كتبت له (أى لمبارك): إننى شهدت آخر أمجاد التعليم والزراعة، قبل تخريبهما فى السنوات العشرين الأخيرة، عملت فى سن السادسة فى جمع دودة القطن بمبلغ ستة قروش فى اليوم، من السابعة صباحا حتى السادسة مساء، كان الفلاح يقرض ويقترض وهو آمن، لأن لديه محصول قطن، ويزوج أبناءه وبناته من عائد هذا المحصول، يكفى أن يطلب أحدهم دينا وهو يردد مقولة سحرية من كلمتين: «على قطن». كانت الدورة الزراعية دستورا ملزما، يحتاج اختراقه أو التحايل عليه إلى كثير من الجرأة والمغامرة قبل أن يكتشف الناس أنهم سرقوا، وأصبحوا مدينين لبنك التسليف بأعمارهم وأرضهم، ثم صحوا على الخراب الكبير.. لا قطن، ولا أرز، ولا زراعة، وما بقى منها يروى بماء الصرف الصحى، وتخرج السموم من المجارى إلى الزرع إلى أجساد افترستها العلل، وعجزت عن المقاومة، فلا تموت ولا تحيا، ويتردد الفقراء على مستشفى لغسيل الكلى أو علاج الكبد، ولا يأتيهم موت يريحهم من حياة عزت عليهم».

(٨)

وعلى هذا النحو يمضى سعد القرش فى تسجيل تاريخ عصر مبارك مستشهدا فى كل حدث بمن أجاد تصوير الحدث من المفكرين والعلماء.

«أما حال التعليم الآن فقد لخصه شكرى عياد قبل سنوات بأنه «تعليم بلا مدارس، ومدارس بلا تعليم»، وما تعرض له التعليم فضيحة أو جريمة كاملة الأركان، فى حين كان وضع أوراق امتحان البكالوريوس وتقييم كراسات الإجابة عملا مشتركا بين الكلية المصرية والكلية المناظرة لها فى جامعة لندن، تحقيقا للتساوى بين الجامعتين.. هذه فكرة الاعتراف الدولى

بالجامعة المصرية (محمد عبد الفتاح القصاص: خطى فى القرن العشرين وما بعده)، فكيف تحولت الجامعات المصرية إلى مدارس؟ أما المعلم «الذى كاد أن يكون رسولا» فأصبح متسولا، يطرق الأبواب من أجل الدروس الخاصة التى يقدرها خبراء بنحو ١٣ مليار جنيه سنويا؟».

(٩)

يحلل سعد القرش فكرة الثورة من زاوية أخرى غابت عن كثيرين من الذين أضنتهم النتيجة، وشغلتهم المصيبة القادمة عن أن يفكروا فى المصائب التى حلت بالوطن نتيجة سيطرة سحابة التوريث على سمائه، ويعبر سعد القرش عن وعيه الكامل بفكرة المسئولية التى غابت عن مصر فى ظل طموح جمال مبارك القاتل فيقول مخاطبا مبارك فى نص لم ينشر فى حينها، ومع هذا فإنه فقد جدته:

«كتبت للرئيس: قلتَ مرة إنه يساعدك فى بعض المهام، فماذا لو أخطأ وهو غير ذى صفة؟ هذا إهانة للعقل، وإهانة لمن حملوك الأمانة، فأبيت أن تحملها، وإعادة الدولة إلى فكرة العزبة والقرية، حيث لا فرق كبيرا بين الخاص والعام، أنت منا، تعب أبواك، ولم تخطط لانتزاع حق ليس لك، كنت قنوعا بالمال والبنين، ثم زادك الله بسطة فى الرزق، مليون كيلو متر مربع من الأرض والسماوات والمياه الإقليمية، لكن ابنك ليس منا، وإذا كنت تحبه، فكيف لا تخاف عليه؟ لماذا لا تحسم الأمر وتنهاه عن هذه الثمرة؟ التوريث ثمرة معطوبة، سرى فيها سم لا يجدى معه علاج ولا إصلاح، بل نسف الأسس الفاسدة، أو قل وأنت فلاح منا: مصر الآن ثمرة مشمومة، خاض فيها كثيرون، وأصبحت منظورة، وليست لعبة يتلهى بها، سوف تحرق أصابعه، ولا يتمكن من الإحاطة بها علما فيلقيها غير عابئ على مَنْ تقع، وأى تدمير سيترتب على سلوك غير محسوب، وسوف تسأل عن هذا أمام التاريخ».

(١٠)

هكذا يحفل كتاب سعد القرش بكثير من اللقطات الفكرية التى تناقش تاريخ فكرة التوريث على أرض الواقع مناقشة حكيمة، وينتبه سعد القرش بمهارة الروائى الفذ إلى دور أو حدث جاء

بالصدفة وأسهم فى تحطيم بعض أجزاء القصة، وهو يروى قصة الدور الذى لعبته قصة مباراة الجزائر فى كأس العالم فى إفساد خطط تقديم جمال مبارك (بطلا مبشرا به) إلى الشعب المصرى:

«لكن الجزائر، من دون قصد، أغلقت الثغرة الأخيرة التى كاد يتسلل منها جمال مبارك إلى الكرسى، ثم اتضح أن الثغرة ظلت موجودة ومتوازية، حتى بعد (جمعة الغضب)، ولم تنته تماما إلا بعد فشل «موقعة الجمل» يوم الأربعاء الدامى ٢/ ٢/ ٢٠١١».

«ذهب جمال إلى السودان على رأس بعثة منتخب كرة القدم، لكن المباراة الفاصلة يوم ١٨/ ١١/ ٢٠٠٩ انتهت بفوز الجزائر، وتأهلت لنهائيات كأس العالم ٢٠١٠ بجنوب إفريقيا، كان الترتيب أن يمر سيناريو التوريث من بوابة الجزائر عبر السودان، وأن يُحمل الوريث فوق رقاب العباد، فى مطار القاهرة، وتخرس الألسنة، وترفع الأقلام، وتجف الصحف، لكن الجزائر أحبطت خطة اللصوص، فاخترعوا خطة بديلة هى اتهام الجمهور الجزائرى بالبلطجة، كان واضحا أن لاعبى الجزائر أبرياء من تهمة الإساءة إلينا، لم يكن مطلوبا منهم أن يخونوا بلادهم، ويفتحوا شباك مرماهم من أجل عيون مبارك الصغير، تجاهل الجهلاء هذا الأمر، وسارعوا إلى لعن السودان لعنا كبيرا، إذ فشل فى حماية لاعبى مصر ومشجعيها بعد المباراة، ونشط السفهاء من المذيعين، وفى القنوات الرسمية والخاصة المملوكة لرجال أعمال تحوم حولهم الشبهات، وأذاعت لقطات قديمة، على أنها اعتداءات على المصريين فى السودان، فى برنامج بالتليفزيون المصرى تساءل أحمق، كان رئيسا لتحرير مجلة حكومية: وهو فين الرئيس السودانى؟ صحوه من النوم، هى السودان فيها مطار!».

«وقال إبراهيم حجازى فى خطاب يذكرنا بالجاهلية الأولى: «محتاجين كمصر.. اللى يبص لى أجيب (أفقأ) عينه، واللى يقل أدبه أديله على قفاه».

(١١)

ويستعرض سعد القرش نماذج كثيرة من الترهات التى انساق إليها المسئولون عن الإعلام المصرى بطريقة رشيقة لا تخلو من المرارة فيقول:

«وقال مندوب المبيعات الزبلكانى الذى أصبح وزيرا للإعلام: إن مصر مستعدة لإرسال

طائرات عسكرية لإجلاء المصريين، وبعد ساعات تغيرت اللهجة، إذ احتج السودان على تصريح سفيه ينتهك سيادته بالكلام، وبطائرات عسكرية، أكد السودان أنه لم يقصر فى حماية الجمهور المصرى، ولم يكن له يد فى تغيير نتيجة المباراة، وتم استدعاء السفير المصرى الذى أبلغ رسميا باستياء السودان من أداء الإعلام المصرى، فتغيرت اللهجة، أصبح السودان على ألسنة المذيعين أنفسهم رائعا وجميلا ومدهشا، وانصبت اللعنات على الجزائر، حتى إن الحماسة المصطنعة لعلاء مبارك فى برنامج تليفزيونى، حملت لاعب كرة تافها على التباكى، وقال ابن مبارك الكبير بثقة: وداعا للعروبة.

(١٢)

ويضرب المثل سعد القرش بنموذج آخر للمزايدين:

«وبغير إحسان تبعه يوسف زيدان فى (المصرى اليوم) مزايدا وساخرا من «مسميات ما أنزل الله بها من سلطان: الإخوة العرب الأشقاء»، وهذا مقال دال وكاف ليجعلنى أفرغ يدى من «اجتهادات» يوسف، وأتخلص من كتبه الغزيرة بعد أن استعرض بخفة غير لائقة بباحث البؤس الذى قال: إنه يغوص فى نفوس «صحراويين لم تعرف بلادهم يوما نسمات التحضر»، فى «ذلك البلد المسمى الجزائر، ورئيسهم الحالى المسمى بوتفليقة»».

«ثم وجد (أى يوسف زيدان) جذورا لهذا العنف الرياضى «أتذكر.. كان معنا فى كلية الآداب طلاب جزائريون بالدراسات العليا، وكانوا والحق يقال مثالا للغباء والعنف الداخلى، والتعصب المطلق (أى التعصب لأى سبب)، ومع أن المنح الدراسية المقدمة لهم، ويا للعجب، كانت مجانية، أى أن مصر (المحروسة) تقوم بسدادها عنهم، إلا أنهم كانوا لا يكفون عن التذمر، لأنهم كانوا حانقين على بلدهم! لأنها أرسلتهم إلى مصر وليس إلى فرنسا، كآخرين من زملائهم (٢٥/ ١١/ ٢٠٠٩)»».

(١٣)

ويعود سعد القرش إلى استبطان ذاته لافتا النظر إلى مفارقة ذكية أخرى يؤكد بها المفارقة الأولى:

«فى المهرجان الثقافى الدولى للأدب وكتاب الشباب بالجزائر (يونيو ٢٠١١)، شكرت أصدقاء جزائريين وقلت: إن كرة القدم لم تكن سببا فى الإلهاء، مرة واحدة على الأقل فى تاريخها، واستشهدت بفريق الجزائر الذى أسهم فى تقديم موعد الثورة المصرية، وتأجيل قضية التوريث».

«فقال لى أحدهم: «ولكن فوز فريقنا أجل الثورة فى الجزائر!»».

(١٤)

والشاهد أن سعد القرش لا يقف عند حد فى تأكيده على صواب ما ذهب إليه وما استنتجه، وهو ينحاز إلى رؤيته انحيازًا محمودًا ومطلوبا من أفكار ثاقبة، حتى إننا نراه يخرج من محيط مصر إلى المحيط العربى، مقارنا بين جمال مبارك وسيف الإسلام القذافى فيقول:

«لا يختلف جمال مبارك عن سيف الإسلام القذافى، ولا مبارك عن معمر، إلا فى الدرجة!!».

(١٥)

هكذا يصدمنا سعد القرش بحكم يتعارض مع ما كان الضمير المصرى قد استقر عليه من الاطمئنان إلى عقل مبارك، وجنون القذافى، وهو يمضى فى تأييد وجهة نظره فيقول:

«فى عام ١٩٩٧ نظم معرض القاهرة الدولى للكتاب ندوة لمناقشة المجموعة القصصية (الأرض الأرض.. القرية القرية.. وانتحار رائد الفضاء) للقذافى، وقد صدرت بمقدمة لسمير سرحان، كان المؤلف العبقرى يتابع، بتعال على الطرف الآخر، اجتهادات النقاد المساكين، وهم يحاولون النفاذ إلى جوهر المعانى الإنسانية الثورية، وأذكر منهم نبيل راغب مؤلف كتاب (أنور السادات رائدا للتأصيل الفكري)، ومدحت الجيار».

(١٦)

وسرعان ما يلقى سعد القرش بأدلة الاتهام الدامغة فيقول:

«وظننت تلك الندوة نزوة نقاد مصريين قصار القامة، أو فرض كفاية على الكتاب العرب،

ثم اكتشفت أنها أحد طقوس الولاء، حتى لمن هم بعيدون عن سطوة البطش القذافى، ففى مدينة سرت الليبية أهدى الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب برئاسة محمد سلماوى، فى أكتوبر ٢٠٠٩، درع الاتحاد للقذافى بصفته أديبا عظيما، ونظم المؤتمر مائدة مستديرة عنوانها (النص الأدبى لدى المبدع معمر القذافي)، شارك فيها المصريون مدحت الجيار، وشوقى بدر يوسف، وفؤاد قنديل تحدث أيضا، حتى إن أحمد الخميسى كتب فى (أخبار الأدب): هل يصدق العقيد ما يقوله أولئك النقاد: «وأتساءل حين أقرأ أخبار ذلك النقد الأدبى: ترى ما الذى قد يغنيه العندليب فى حضرة السيف؟!» (١/ ١١/ ٢٠٠٩)».

(١٧)

ويستطرد سعد القرش إلى نقد صريح وقاس لموقف المثقفين المصريين فى مستويات رفيعة من الرئيس الليبى معمر القذافى:

«فتحت «الحياة» بعض صفحات ملف الملوثة أيديهم بدماء الليبيين، ممن مدحوا القذافى، أو شاركوا فى ندوات عنه (كاتبا ومبدعا)، وزينوا له سوء عمله فرآه حسنا، ومنهم المصريون: سمير سرحان، ومحمد سلماوى، ومحمد جبريل، وسيد محمد السيد قطب، وميرال الطحاوى، وسمير الجمل، فماذا يختلف القذافى عن صدام؟».

«جابر عصفور، الذى يحلو له التباهى برفض زيارة العراق تحت حكم دكتاتور، لم يتردد فى قبول جائزة تحمل اسم دكتاتور آخر، كان الكاتب الإسبانى خوان جويتيسولو قد رفض (جائزة القذافى العالمية للآداب)، فى دورتها الأولى والأخيرة، وأعلن فى أغسطس ٢٠٠٩ أنه لن يستطيع قبول الجائزة، وقال لعضو لجنة التحكيم صلاح فضل فى رسالة: «أرجوك بشدة أن تتفهم الأسباب التى تدفعنى لعدم قبول هذه الجائزة.. انتقدت بلا توقف الدكتاتورية والعائلات الملكية الجمهورية التى تحكم بينما تجعل شعوبها فى فقر وجهل»، فيما بعد قال جويتيسولو: «لا يمكن أن أحمل جائزة تحمل اسم دكتاتور، وأنا أكتب عن الحريات والديمقراطية فى كل مكان» (مجلة الدوحة يونيو ٢٠١١)».

(١٨)

ويستعرض سعد القرش هذه القصة الكاشفة بالتفصيل فيقول:

«اعترض جويتيسولو على تجميل وجه طاغية لا يستحق أن يمنحه كاتب محترم شرف قبوله جائزة تحمل اسمه، فسارع عراب الجوائز صلاح فضل إلى حمل جائزة القذافى: صرها فى منديل أو عقال خليجى، ووضعها فى زاوية من بقجة كبيرة تضم جوائز وأمانات جوائز ولجان، وعرضها على عصفور فلم يشفق منها وتسلمها يوم ٢٤/ ٤/ ٢٠١٠، حملها وتباهى، وبعد أيام من عودته المباركة كتب فى الأهرام (٣/ ٥/ ٢٠١٠) فخورا بالجائزة، وبالرحلة إلى ليبيا التى ردت إليه «ما ضاع من صورة وطنى»، مستدفئا ومسترا بصحبة ضمت السيد يس، وأحمد إبراهيم الفقيه، بالإضافة إلى أستاذنا الدكتور يحيى الجمل، وخيرى شلبى، وأخى جمال الغيطانى، وسعيد الكفراوى، ومحمد الخولى، ويسرى خميس، ومحمد سلماوى، رئيس اتحاد الكتاب العرب، مدعوين للاحتفال».

(١٩)

هنا يتوقف سعد القرش ليوجه سهام نقده لآخر وزراء الثقافة فى عهد مبارك فيقول:

«جابر عصفور، كما وصفه نصر أبو زيد فى رسالة لسعيد الكفراوى أحتفظ بأصلها، طحنه «قادوس السلطة»، وانتشى نشوة الاندماج والذوبان الكامل عشقا فى السلطة وولها بها».

«وسيكون لعصفور نصيب فى يوميات الثورة (يشير القرش إلى صفحات كتابه الذى نعرض له)، فالشيطان الأخرس هو الذى يعرف مقولة سفيان الثورى: «النظر إلى وجه الظالم خطيئة»، ثم يرضى بأن يستخدمه الظالمون، وهوغير مكره».

(٢٠)

كأنى بعد هذا أريد أن أقول: إن سعد القرش ينظر إلى أحداث الثورة نظرة فنان قادر على

التصوير والتشبيه والتجسيد، والحق أنه كذلك، وانظر إليه وقد وصل فى يومياته إلى أول أيام الثورة، فبدأ يصفها بطريقة غير تقليدية تتناسب مع حدث جليل لا يعيشه المرء إلا مرة واحدة، وهو يبدأ حديثه عن أول أيام الثورة بتصوير تاريخى دقيق لرؤيته هو نفسه لقصة مصرع خالد سعيد على يد بعض أفراد من الشرطة المصرية:

«يوم الثلاثاء ٢٥ يناير، لم يقرأ الثوار صحيفة (الأهرام)، رأوها فاقدة الأهلية الوطنية والمهنية، حين خصصت الجزء الأبرز من صفحتها الأولى لوزير الداخلية حبيب العادلى، هذا الرجل الذئب حمل مفتاح الثورة، وسلمه إلى نشطاء الفيس بوك، فصنعوا من هذا المفتاح للشعب ملايين النسخ، ودخلوا القصر الجمهورى، وخلعوا الرئيس، كان المفتاح يحمل صورة خالد سعيد، شاب سكندرى نحيل مبتسم لثورة لن يدركها، ولكن جسده فجر ثغرة مهمة فى جدار فولاذى، وقد اتهم بابتلاع لفافة من البانجو، وقالت الشرطة: إنها أدت إلى وفاته، ولم يسأل الملفقون: وما الداعى للتمثيل برأس الشاب؟ صورته التشريحية مشوهة، طالتها يد باطشة، فتكت بالذقن والفكين، وفرطت الأسنان، وما هكذا يفعل البانجو بالناس! ليتهم استفتوا أى حشاش، وما أكثرهم بين سفاحى وزارة الداخلية، (الجمهورية) إنه «شهيد البانجو»».

(٢١)

عند هذا الحد يتحدث سعد القرش عن صيحة الشباب بامتنان المعجب المحب ويقول:

«هنا أعلن نشطاء الفيس بوك صيحتهم العابرة للمسافات: (كلنا خالد سعيد)، خصصوا له صفحات، زودوها بصوره مبتسما، ثم ممثلا به، وعاندوا بوسائل العصر سلطة متخلفة تنتمى إلى الماضى، وفى موقع يوتيوب الإلكترونى شريط فيديو كان خالد سعيد قد تمكن من تصويره، فى الإسكندرية، لأفراد من الشرطة يعيدون تدوير المخدرات، وجرت العادة أن يستأثر بعض الضباط بجزء من المخدرات المضبوطة، وخصوصا الحشيش، للاستخدام الشخصى، وإذا اتسعت الذمم تجد المضبوطات طريقها إلى الشارع، عن طريق تجار المخدرات، أو مروجين صغار موثوق بهم».

«أراد الحمقى أن ينتقموا لفضيحتهم، فارتكبوا جريمة أدت إلى إطاحة نظام حكم البلاد بالحديد والنار ٣٠ عاما، حدث ذلك يوم ٦/ ٦/ ٢٠١٠، حيث قبض اثنان من مجرمى الشرطة على الفتى، وعذبوه حتى الموت، ونكاية فى أهل خالد سعيد، وفى الغاضبين أخلت النيابة سبيل المتهمين بالقتل، قال أحد الشهود: إن الفتى استعطف الشرطى وهو يضرب رأسه: سأموت، ولم يتردد القاتل فى الاعتراف بأنه جاء ليقتله، أصبح خالد سعيد أيقونة، بملامح تحتفظ ببقايا طفولة، وابتسامة تقترب من الهشاشة والتفاؤل، ثم بصورته ممثلا به، مشوها على مقاس تشوه نفسى يعانيه وحوش الشرطة».

(٢٢)

ويعود سعد القرش إلى صحيفته التى يعمل بها، إلى الأهرام منتقدا سلوكها وفشلها، كاشفا عن بعض الأسباب وراء هذا الفشل:

«فشلت (الأهرام) مهنيا منذ اليوم الأول، وسيهتف الثوار بعد تحرير ميدان التحرير من قبضة الشرطة بسقوط مسئوليها، خصصت الصحيفة مساحة كبرى لمقابلة مع حبيب العادلى «وزير التعذيب» أجراها رئيس التحرير ومحرر استمرأ الحديث للفضائيات بلسان جهاز أمن الدولة سيئ السمعة، حتى إن الصحفيين وصفوه بمندوب البوليس فى الأهرام، نشرت الصحيفة صورة كبيرة متحدية للوزير مبتسما، وتجاهلت حق القارئ فى معرفة حدث ضخم، أعلن منظموه إصرارهم على تنفيذه، فى موعد حددوه، هل كان مبارك يتنبأ فى الخطاب/ الشهادة بمناسبة عيد الشرطة، بالحدث الذى سيسدل ستار النهاية؟ حين قال: «لقد أثبتت مصر أنها أقوى من المحن، وأثبت المصريون أنهم شعب متماسك وعنيد»».

«سهرت فى (الأهرام المسائي) مسئولا عن الطبعة، حتى فجر الثلاثاء ٢٥ يناير، قدرت أن الثورة لن تبدأ فى الصباح، الخبرة التونسية تقول: إن من الحكمة أن تبدأ الثورة بعد الظهر، فالشرطة تستيقظ مبكرا، وبعد ساعات ستكون منهكة، فيستطيع الثوار أن يبدؤوا بكامل حيويتهم، ويواصلوا مساء حتى فجر اليوم التالى، كان عدد (الأهرام المسائي) يضم ملفا من سبع صفحات، نقلا عن مجلة (الشرطة) تحت عنوان (عيد الشرطة عيد كل المصريين) عن

أبطال وشهداء يناير ١٩٥٢ فى الإسماعيلية، وفى الملف حوار سنوى لمبارك مع مجلة (الشرطة) يكتبه فى الغالب محترف مجهول وينسب إلى الرئيس، وفيه قال: «إن أعيادنا الوطنية ليست مجرد أيام فى التاريخ.. فقيمتها الحقيقية فى أنها علامات وطنية فى تاريخ مصر، تضيء الطريق لأجيالنا الجديدة، وتطرح أمام شبابنا نماذج لقيم الفداء، وروح التضحية والبذل التى واكبت مسيرة مصر وشعبها»، ولم ينس أن يؤكد على احترام «إرادة الشعب التونسى وخياراته»، بعد خلع زين العابدين، أول الرؤساء العرب الهاربين».

(٢٣)

ولا ينسى سعد القرش فى خضم هذا كله أن يشير إلى بعض أسماء مَنْ ينتقدهم من المثقفين الكبار:

«تصفحت مجلة (الشرطة) وفوجئت بمقالات لصلاح عيسى، وجمال الغيطانى، وفريدة الشوباشى وغيرهم، ولم أبال بآخرين يسترزقون، فمنهم عجائز الصحافة، ومديرو التحرير فى الصحف، سألت نفسى: هل يكتبون مجانا؟».

وعلى هذا النحو اللاذع يمضى قلم سعد القرش.

(٢٤)

وحين يصور سعد القرش ذكرياته عن يوم جمعة الغضب فإنه حريص على أن يرويها من ذاكرة واسعة الاطلاع، ولم لا وهو الصحفى الذى يعمل فى وكالة «رويترز» العالمية للأنباء بالإضافة إلى عمله فى «الأهرام»:

«... ذهبت إلى مكتب رويترز، قرأت فى العيون لهفة وقلقا، وقلت: إن ميدان عبد المنعم رياض ساحة قتال، كر وفر، ومراوغة بين طرفين لا تكافؤ بينهما، ووسط البلد يشهد حرب شوارع لم يحسم فيها النصر لطرف، باستثناء الجزء المحرر من شارع طلعت حرب».

(٢٥)

وهو يعبر فى براءة الأطفال عن سعادته باكتشاف الإنترنت نشطا فى الوكالة، بينما كانت الحكومة المصرية قد قطعت خدمة الاتصالات عن مواطنيها المساكين:

«فوجئت بالإنترنت تعمل عن طريق الساتلايت (أى القمر الصناعي)، طرت فرحا، وكان على أن أطمئن الأصدقاء من المصريين والعرب والأجانب، خارج مصر، وقلت: مرحبا بالفيس بوك الذى سيكتب نهاية لمن ينتمون إلى عصر سابق، كتبت رسائل سريعة بين كل منها والأخرى وقت قصير، أتبادل فيها رسائل البريد الإلكترونى مع أصدقاء فى الخارج، وتشهد صفحتى على الفيس بوك أننى حرصت، منذ الساعة الأولى، على تسمية الأشياء بأسمائها، فما أنا فيه «ثورة»، وهؤلاء الأبطال ليسوا متمردين ولا مثيرى شغب، لكنهم «ثوار»».

«أكتب من وسط القاهرة.. استراحة قصيرة من قنابل الغاز، ميدان عبد المنعم رياض ساحة حرب، ووسط البلد يكاد يحرره الثوار، من شرفات المنازل تُسقط العجائز وغير القادرين زجاجات مياه وبعض الفاكهة والبصل المضاد للغاز فى شارع طلعت حرب الذى تحرر تماما، وتراجع الضباط إلى نقابة الصحفيين، باقٍ زقة واحدة ويسقط الصنم، والشباب يراهنون على الأمل».

(٢٦)

ويندفع سعد القرش بسعادة إلى صياغات شعرية وحماسية:

«القاهرة اليوم مختلفة، منظر يفرح القلب، لن يتكرر إلا حين يظهر حسنى مبارك آخر».

«مصر اليوم أجمل من أى قصيدة، المتظاهرون حرروا شارع طلعت حرب فى وسط القاهرة، أترككم الآن».

(٢٧)

ثم ينقلنا سعد القرش معه إلى أجواء ٢٥ يناير، بينما هو على الكمبيوتر يتبادل الرسائل مع العالم، ولا يغفل التليفون الأرضى أيضا:

«ولكن سلمى ابنتى اتصلت بى من التليفون الأرضى، وأبقتنى قليلا فى المكتب، ثم كتبت:

«سلمى كلمتنى حالا وفكرتنى بالمقال، وقالت: خلاص حسنى مبارك ماشى ماشى، وتشترى لى موبايل».

«الأمل على بعد خطوة».

«ومن العراق أو الدنمارك علق سلام إبراهيم قائلا: لو يصير مبارك مرة واحدة شريفا ويترك الكرسى ويسافر».

«وأرسل لى كريم كطافة، من منفى أوروبى ما، يقول: وأنا أتابع ما يجرى فى مصرنا تذكرتك، وتذكرت الكتاب المصريين الذين لم يملوا من الطرق على معدن الشعب المصرى لقناعتهم أنه معدن أصيل.. ها هو شعبك ينتفض أيها الأستاذ.. أبارك للمصريين ثورتهم.. يدى على قلبى من ردة فعل النظام.. مازال يملك أدوات وسلطة القوة.. لكن ما رأيته أقنعنى بشىء وحيد وهو الذى كنت أبحث عنه، أنهم طلقوا الخوف.. لم يعد بعبع النظام يرعب الشباب.. أجمل ما فى ثورة مصر أنها بلا قيادة.. هذا يدل على أن الأزمة كانت ليست أزمة نظام فقط، بل نظام ومعارضة.. كما ترى أحزاب المعارضة تريد اللحاق بالشعب دونما جدوى.. حتى الإخوان المسلمون بدوا تجمعات معزولة ضائعة فى لجة طوفان الشعب.. مبروك أخى.. وكلى أمل أن تنجح مصر هذه المرة، وإلى لقاء فى مصر الجديدة.. أتمنى لك السلامة مثلما أتمناها لكل مصرى مشارك فى المظاهرات».

«ومن العجلة، رددت عليه بكلمتين: اطمئن علينا».

(٢٨)

على أن سعد القرش ابن الشعب لا يكتفى فيما يرويه لنا عن الثورة بما كان من أمرها فى الشارع، ولا فى الفضاء الإلكترونى، ولا فى رسائل أصدقائه من الخارج إليه، وإنما هو يتحدث بكل جسارة وحب عن بعض المظاهر والأصداء التى رآها فيما بين طبقات الشعب المختلفة فى ذلك اليوم، مقدما بانوراما جميلة لعظمة المصريات والمصريين:

«تحررت شوارع وسط المدينة من قبضة الشرطة، مضينا نحو ميدان طلعت حرب، غير خائفين ولا ضائقين ببقايا آثار الغاز المسيل للدموع، الساعة السابعة إلا عشر دقائق، كان الميدان مزدحما بمن لجؤوا إليه من الشوارع المحيطة، يصنع رصيف مكتبة مدبولى هلالا فى دائرة الميدان، فى أوقات سابقة، قبل صعود ثورة ٢٥ يناير، كنا نحلم بالتظاهر بأمان فى هذه المساحة الصغيرة، من دون أن تناوشنا الشرطة، والميدان كله الآن لنا، خال من أى أثر للشرطة، فيما عدا «كاب» ضابط، أو درع جندى، ولا فوضى ولا تخريب».

(٢٩)

ويتحدث سعد القرش عما رآه من تفجر السلوك الراقى بفضل الثورة:

«أقبلت سيدة جميلة بصحبة فتاتين وشاب، جمعوا فى كيس من البلاستيك أى مخلفات من أوراق أو قطع حجارة، ثم عادت ومعها برتقالات تعطيها لمتظاهرين جفت حلوقهم من الهتاف والعطش والجوع، وأعطتنى واحدة، ولم أكن أشعر بجوع ولا عطش، ومددتها إلى سحر الموجى فقالت: إنها لا تشعر بالحاجة إلى تناول أى شىء».

«وتحت تمثال طلعت حرب تربع شاب، قال إنه طالب فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة، وسألنى عما إذا كان امتحان الغد سيعقد، هو لم يستعد، ثم إنه لن يغادر الميدان، لا يريد ولا يستطيع، لإصابته بإعياء شديد، وقلق على نصر لم يكتمل، وتذكرت الضابط الذى أوصلته إلى الجامعة بسيارتى فجر الثلاثاء ٢٥ يناير، وقلت: إنهم أغبياء ولكن ليس لدرجة أن يفتحوا الجامعة غدا السبت، لم أر هذا الطالب بعد ذلك، ولعلى رأيته كل يوم فى الميدان لم يعرف أحدنا الآخر، وربما اقتسمنا رغيفا أو كوب ماء، كنت أريد أن أقول له مزحة تلقيتها بالإيميل «فى إجازة نص السنة خلعنا مبارك، و٣ حكومات، وغيرنا النظام، والجيش نزل، والأمن ضربنا بالرصاص، وهاجمنا البلطجية، وحرقنا سيارات الأمن وأقسام الشرطة، وتصورنا مع الدبابات، طيب هنعمل إيه فى الإجازة الكبيرة؟».

(٣٠)

ويسجل سعد القرش أيضا ما لمسه من انفعالات الفنانين:

«اختفى الشاب، وجاء محمد عبلة تسبقه ابتسامة النصر، واقترح أن يلتقط لى صورة فى الميدان، ولست خبيرا بالتصوير، وهو أشار إلى وسط الميدان، وقال: «صورة مع هذا الرجل العظيم»، يقصد طلعت حرب، التقط لى صورة فى الساعة السابعة تماما، وهى الصورة الوحيدة التى التقطت لى طوال أيام الثورة، إذ لم أفكر فى مثل هذا الأمر، ولا دعوت أولادى للميدان، إلا بعد ساعات من خلع مبارك (بعد خلع مبارك بستة أشهر بالضبط، أعطانى زميلى محمد عطية صورة فى مظاهرة، وبنظرة على الخلفية حيث سنترال رمسيس وصيدلية الإسعاف، اكتشفت أنها من مسيرة بدأت بميدان رمسيس باتجاه ميدان التحرير ظهر الجمعة ١١ فبراير).

(٣١)

هكذا تختلط السعادة بالبشر بالذكريات الجميلة، كلما تذكرنا هذا الشعب الجميل الذى أنجب سعد القرش وزملاءه من الثوار، وكلما أدركنا كيف نجحت ثورة من أعظم ثورات التاريخ.

«لم يطبع محمد عبلة صورتى، ولا أرسلها إلى بالبريد الإلكترونى، ثم قابلته فى ميدان التحرير عصر الثلاثاء ١٢/ ٤/ ٢٠١١، ساعة فتح الميدان بعد إغلاقه أربعة أيام، كان يحتفظ بصفاء ابتسامته القديمة وقال:

«لا تقلق، صورتك عندى».

(٣٢)

لا يكاد سعد القرش يخفى ألمه من خيانة المثقفين، وإن لم يستخدم هذا المصطلح بالاسم الصريح، لكنه حريص على أن يتبرأ من كل سلوك مضاد للطبيعة البشرية الذكية، وهو يتحدث عن انطباعاته كمثقف حين استمع إلى وزير الثقافة الجديد:

«كان جابر عصفور يتحدث إلى التليفزيون الرسمى، اتصلوا به أم بادر إلى الاتصال، لا يعنينى، سمعت صوته فاقتربت من التليفزيون، هذه نبرة صوته حين يميل لإخراج بعض الحروف من أنفه، ويتخذ هيئة الحكيم، وهو الآن ينتقد الحكومة ويشدد على فشل سياساتها، وكيف أدت إلى هذا الاحتقان، هو مثلنا يعلم أن رئيس الحكومة أحمد نظيف رجل طيب، قال حين فوجئ بالمنصب، قبل ست سنوات إنه لا علاقة له بالسياسة، ومواهبه تقنية لا تؤهله إلا لإدارة مركز اتصالات (سنترال)، أما قضايا السياسة فيعلم عصفور أنها بيد مبارك الكبير الذى كان فى حضرته يوم ٣٠/ ٩/ ٢٠١٠، وفى يد مبارك الصغير الذى استجاب لاستدعائه مع آخرين، قبل دعوة الأب، وفى يد الأم سوزان التى يعمل معها فى المجلس القومى للمرأة».

«رأى عصفور النار تشتعل فى أجسادنا، واكتفى بإسدال ستار، وتجاهل الدخان، انتقد أداء الحكومة، ولم يجرؤ على قول كلمة حق يؤيد بها الثوار، لم يتحدث عن عدالة مطالبهم، ولم ينتقد وحشية جهاز الشرطة، والخيانة المتمثلة فى سحب عناصرها، وترك البلد للبلطجية».

(٣٣)

ويمضى سعد القرش فى الهجوم على آخر وزراء عصر مبارك حتى يقول:

«قال كلاما عاما، على رأى طه حسين «كلام كالكلام» أقرب إلى البلطجة الناعمة، وعلى الفور كتبت فى صفحتى على الفيس بوك:

«جابر عصفور يمتلك جرأة بأثر رجعى، ويتحدث فى التليفزيون المصرى بشجاعة إمساك العصا من المنتصف، بما يليق بخادم سيدتين.. جيهان السادات وسوزان مبارك».

«لم ينتقد عصفور الدولة البوليسية، أو قمع المتظاهرين المسالمين بوحشية، ولا قال: إن هؤلاء ثوار نبلاء، هو يعلم أن النظام بيده مقاليد كل شىء، فلم يقترب من الرئيس ولا من ابنه، ومن الحزب الحاكم، وكنت مستفزا من الشجاعة فى غير موضعها، حتى الحكومة لم أعهده منتقدا لها، لكنها الآن حلقة ضعيفة يسهل التضحية بها من أجل إطالة عمر الحاكم والنظام،

طرف ضعيف يمكن أن تصوب إليه السهام، ولن يشكو الميت، عصفور اعتاد أن يصوب طلقاته إلى أى طرف بعد انتهاء المعركة، وخروجه من الحلبة، بعد خلع مبارك، وحين تأكدت له نهاية الحزب الحاكم، أطلق سهامه على الموتى، ومثل بالجثث، معلنا التنبؤ بالثورة بعد نجاحها، بسبب (ما فعله الحزب الوطنى بمصر)، من «إفساد الحياة السياسية باحتكار السلطة»، وهممت أن أتصل به وأقول له: «اتق الله ولو بثورة، قل خيرا أو اصمت»، لكن الإعلان عن خطاب للرئيس شغلنى عن عصفور، ثم إننى أعرف غرام عصفور بالسلطة، وما يقرب إليها من قول أو عمل، وكلامى لن يجد فى نفسه هوى».

(٣٤)

ثم يروى سعد القرش بمرارة المنتصر، إن جاز أن يكون عند المنتصر مرارة، انطباعاته المبكرة عند سماعه لخطاب مبارك الذى ألقاه فى أثناء الثورة:

«فى مصر ثورة تسعى، ولا يريد مسئول بعد أربعة أيام أوغل فيها نظام مبارك فى الدم، أن ينتبه إلى أن هناك شعبا يستحق شيئا أكبر من اللامبالاة، كأن الجريمة تمس شعبا آخر، قدرت أن مبارك الرجل العجوز أصيب بغيبوبة، وحين أفاق أخفوا عنه خبرا يشغل كل الفضائيات العربية والأجنبية، وقلت إنهم أخفوا عنه الريموت كونترول، وثبتوا الشاشة على قناة مصرية يديرها وزيره مندوب المبيعات».

(٣٥)

ونرى سعد القرش حريصا على أن يسخر من صياغة خطاب مبارك الأخير:

«جاء خطاب مبارك نكتة باردة، مهينة تستخف بتضحيات الثوار، رفعت الثورة حرارة البلاد إلى درجة الغليان، لكن الخطاب الرتيب، الذى سمعنا مثله طوال ٣٠ عاما، كان فى درجة الصفر، ثم إنه خلا من «فهمتكم» الكلمة التى لم نكن ننتظر غيرها، أشفقت على الرجل الذى تكلم كثيرا ولم يقل شيئا، بدا مجبرا وقد جيء به من تابوت محنطا يلقى كلمات تثقل عمره المثقل بلمسات المكياج».

«أمسى التليفزيون الرسمى نافذة تتسول كلاما فارغا يجيده أو لا يجيده عجزة ومريدون من إعلاميين ومثقفين وعابرى كورنيش النيل، وتحدث جابر عصفور، وقد تهيأ للتوزير، قائلا: إنه مطمئن على الوطن فى ظل الرئيس، ولكن الحكومة أخطأت وخطاب السيد الرئيس فيه إيجابيات ينبغى أن يرد عليها الشباب بإيجابيات».

«انتظرت أن يقول مبارك: «فهمتكم»، وينتهى الأمر فنستريح، نحن الشعب، والجيش جيشنا، أما البوليس الذى يخصه فانسحب، لم يقل إنه فهمنا، بل اتبع سياسة النفس الطويل، والملل البيروقراطى الذى سيواجهه الثوار، فى ميدان التحرير، بلافتات مستعارة من صلاح جاهين بصوت سعاد حسنى: «أكلمه بحرارة.. يرد بالقطارة».

(٣٦)

ثم إن سعد القرش، شأنه شأن كل روائى يؤمن بضرورة الأحداث لصناعة الرواية، وبضرورة الملامح الشخصية فى رسم الشخصيات، يعبر بكل وضوح عن سعادته القصوى بما اكتشفه عن عناد مبارك فى هذه اللحظة:

«لولا عناد مبارك، وانتهاجه سياسة الملل، لفقدت الثورة كثيرا من روعتها. جاء خطاب مبارك مساء (جمعة الغضب) مؤكدا فرق التوقيت، فاصل الذكاء والزمن، بينه وبين الثوار، فى البداية مال إلى مهادنة «المتظاهرين»، ثم قال: «إن خيطا رفيعا يفصل بين الحرية والفوضى»، ثم أخيرا «طلبت من الحكومة التقدم باستقالتها»، لم يفهمنا الرئيس، أو فهم ثم أراد استغفالنا، لم نخرج من أجل تغيير حكومة ليست لها صلاحيات، ولن يكون لغيرها، وفى اليوم التالى كالعادة، تصف (الأهرام المسائي) الحكومية الخطاب بالتاريخى، وتخصص صفحة عنوانها «ترحيب شعبى واسع بخطاب مبارك»، وصفحتين تحت عنوان «يوم الغضب يسلم البلد إلى اللصوص»، وجاء فى الصفحة الأولى عنوان «ما حدث فى المظاهرات يتجاوز النهب والفوضى والحرائق لمخطط أبعد من ذلك لزعزعة الاستقرار، والانقضاض على الشرعية».

(٣٧)

ونمضى مع سعد القرش إلى ما يرويه عن ذكرياته يوم السبت ٥ يناير حيث نجده يختار من الميدان نماذج معبرة عن واقع الثورة الوليدة وما أدركته من نجاح ساحق:

«فى الزحام رأيت امرأة، لا يبدو من ملابسها أو ملامحها أنها ناشطة سياسية أو مثقفة، تحمل كرسيا رسمت فى منتصف مسنده نجمة داود، وفيه رسالة لمبارك: «خذ الكرسى وارحل يا ظالم»، وفتى يتجول فى أرجاء الميدان حاملا لافتة من ورق كارتونى، مكتوبا عليها بخط غير متقن: «نصف ثورة يساوى هلاك أمة»، قلت لنفسى: إن الثورة نجحت، فهذا شاب يتمتع بذكاء فطرى، ولو كان مثقفا لذكر المثل الصينى القائل: «أنصاف الثورات أكفان الشعوب»، لكنه بلغ الحقيقة بنفسه».

(٣٨)

ويضمن سعد القرش كتابه قصة غير معروفة عن بيان مهم للمثقفين المصريين وهو بيان لم يحظ بالتمجيد الذى يستحقه:

«فى بداية ساعتى القيلولة جذب انتباهى عنوان (بيان للشعب) فتحت هذه الرسالة، متجاهلا ما قبلها وما بعدها، وقرأت البيان المفتوح، وقد وقعه ١٩١ من إعلاميين وكتاب وصحفيين وسينمائيين، وتقول سطوره الخمسة: «نعلن براءتنا إلى الله والشعب المصرى العظيم مما يقوم به الإعلام الرسمى المقروء والمسموع والمرئى، ومَنْ على شاكلتهم، من تزوير للحقائق وكذب وافتراء وتشويه متعمد وساذج لصورة هذا الشعب النقى الطاهر الذى يحرص على حرية وتقدم هذا الوطن أكثر مما يحرص على حياته.. ونطالب بوقف تلك الأكاذيب فورا، والاعتذار عنها، وإيقاف كل المسئولين عن ذلك لحين تقديمهم لمحاكمة عاجلة».

«كنت صاحب التوقيع رقم ١٩٢ وأرسلت البيان لأصدقاء، اقترحت عليهم أن يوقعوه، ثم يرسلوه إلى آخرين، ونشر صفاء ذياب البيان، اليوم السبت، فى موقع (شهريار)، وذيل بهذه الجملة: إذا كنت ترغب أن تنضم إلى البيان فأضف اسمك وأرسله إلى كافة الإيميلات المسجلة

لديك»، وأرسل صفاء، من منفى أوروبى ما، إلى صفحتى على الفيس بوك قائلا: كلنا معكم يا سعد، كما تستطيعون التوقيع فى الموقع مباشرة ليكون (شهريار) موقعا لكم».

(٣٩)

ولا يفوت سعد القرش أن يسخر من آخر رؤساء الوزراء فى عصر مبارك الذى جاء ليعيد الحديث عن تكرار الأمل فى العودة بالزمن إلى الوراء:

«قرأت تصريحا لأحمد شفيق رئيس الوزراء عن «عناصر أجنبية» اتهمها بإثارة الفتنة، وشدد على أنها «أعداد محدودة، وأجهزة الأمن تتعامل معها»، قلت: إنه مسكين، لابد أن يكون له تصريح يومى، ولا شىء جديد فى البلاد، ولا إنجاز لوزارته إلا الكلام.. فليتكلم».

(٤٠)

حين يصل سعد القرش إلى نهاية الفصل الأول من المسرحية العظمى وهى النهاية التى وقعت فى يوم الجمعة ١١ فبراير فإنه يجيد التعبير عن مشاعر القلق التى انتابته فى ذلك اليوم الذى كان مفتوحا على كل الاحتمالات فيقول:

«... كنت أستقبل صباحات أيام الثورة بالتفاؤل، لم أكن قلقا إلا صباح يومى ٢٨ يناير (جمعة الغضب) و١١ فبراير (جمعة المواجهة أو الحسم أو التحدي)، يشكل هذان اليومان قوسى حدث كبير، شهدت بعض أيامه مفاجآت تراجيدية، لكنها كانت تفاصيل محتملة وواضحة، ويمكن التصدى لها، وإن كانت دامية مثل موقعة الجمل».

«فى (جمعة الغضب) كانت المواجهة مع طرف معلوم هو الشرطة، فى جولة أولى لمباراة لا يعرف أى طرف كيف تنتهى، ولا متى، لم تتوقع الشرطة هزيمة سريعة فى نهاية ذلك اليوم».

«اليوم غائم، لا نعرف الطرف الذى سيخوض المواجهة معنا، ولا طبيعة أعضائه، ولا نوع أسلحته، ولا أماكن الفخاخ والانقضاض. هذه فرصته الأخيرة، وليس أمامه جولات تعويضية ليكون عاقلا فى الخصومة، سيقاتل مثل انتحارى من أجل بقائه، وهو يعلم أن مصر، وفى القلب

منها العاصمة الجديدة ميدان التحرير، وامتداداته إلى التليفزيون والقصر الجمهورى، لا تتسع لنا وله، وبقاؤه يعنى القضاء على الثورة والانتهاء من هذا الصراع».

(٤١)

ويوحى لنا سعد القرش أنه ظل حتى اللحظات الأخيرة يتأرجح بين الخوف والقلق والرجاء:

«رفضت اصطحاب أولادى إلى الميدان، كما وعدتهم أمس، لم أقل لهم: إن اليوم مفتوح على أى توقع، ولا يمكن لعراف أن يتنبأ بالنهاية، ثم إننى لن أذهب مباشرة إلى ميدان التحرير، ودعتهم وخرجت لا أعرف إلى أين أذهب، وسمعت من راديو بأحد المحال البيان الثانى للجيش، ويتضمن إنهاء حالة الطوارئ فور الانتهاء من الظروف الراهنة، والتزام القوات المسلحة برعاية مطالب الشعب المشروعة: «وتؤكد القوات المسلحة على عدم الملاحقة الأمنية للشرفاء الذين رفضوا الفساد وطالبوا بالإصلاح»، وقفت أمام الجملة الأخيرة، وتساءلت: هل فعلها الجيش الذى التزم الحياد السلبى، غير المبرر أخلاقيا ولا وطنيا فى موقعة الجمل؟ هل تسلم الحكم بالفعل لتكون له سلطة الملاحقة أو عدم الملاحقة؟!».

■ ■ ■

الفصل التاسع

وائل غنيم.. فى كتاب الثورة

(١)

ها هم أبناء الثورة يبدؤون فى تسجيل ذكرياتهم وسوف يستمرون فلن يوقفهم عن تسجيلها أحد ولن تبعدهم عن تذكرها أية قوة مهما كانت قوتها، ذلك أنهم لا يزالون ثائرين.

وها هو وائل غنيم الذى هو واحد من أبرز هؤلاء يكتب ذكرياته أو ما يصوره على أنه ذكرياته، عن أيام الثورة والأيام التى سبقت تلك الأيام فيضعنا أمام القدرة على الاختيار، فقد كان فى وسع وائل غنيم من دبى ومن مكتبه الآمن بها أن يواصل قيادته للنواة التنظيمية والمعلوماتية فى الثورة من خلال صفحة «كلنا خالد سعيد» وصفحاتها الشقيقات، وقد كان فى وسعه أن يحقق ويحرز نجاحات مستحقة فى حشد الجماهير للثورة من خلال العالم الافتراضى الذكى الذى يجيد التعامل معه، لكن لحظة الاختيار فرضت نفسها على وائل غنيم، ووضعته أمام الحقيقة المطلقة وهى أنه لابد له أن يكتوى بنار الثورة حين تندلع وأنه لابد له أن يتطهر بهذه النار وأن ينصهر فيها، وإلا فانه سوف يظل على الهامش مهما كان فى قلب الأحداث فى هذا العالم الافتراضى.

(٢)

وجد وائل غنيم خطواته المؤمنة تقوده إلى القاهرة قبيل اندلاع الثورة ومن ثم إلى تجربة الاعتقال الشهير الذى دام أحد عشر يوما انقطع فيها وائل غنيم عن الدنيا، بينما أوار الثورة مشتعل.

ومع أنه كان من الذكاء بحيث نسّق مبكرًا مع البدائل القادرين على استكمال دوره، فإننا ربما نظن أن تجربة الاعتقال قد حدت من قدرته على توجيه الأحداث من موقع العقل البارد وهو ما كان بوسعه أن يفعله، وهو ما كان حريًا به فى ظننا لكننا سرعان ما نكتشف أن مثل هذا التفكير لا يليق بالإنسان الحى الذى هو روح وبدن وحياة وحركة.

ومن ثم فإننا نكتشف أيضا أو نقتنع بما صوره لنا وائل غنيم من أنه لم يكن من الممكن لوائل غنيم نفسه المشتعل حماسة أن يظل بعيدًا عن الأحداث وبعيدًا عن العقاب الذى قد تفرضه أجهزة أمن الدولة على أمثاله.

(٣)

نال وائل غنيم من الثورة عذابها كما نال منها من قبل إحساس الأبوة، وربما كان عذاب الثورة هو الأبقى فى نفسه ووجدانه، لأنه كما نعرف عذاب عذب المذاق فى فم الثائرين وإن كان صعبًا فى تصوره على الآخرين إذ كيف لإنسان لم يتعرض للتعذيب من قبل أن يعيش أحد عشر يوما معصوب العينين حتى تمتلئ عيناه بالعماص؟

وكيف له أن يعيش فى ملابس لا يغيرها حتى تمتلئ هذه الملابس بفضلات الطعام المتساقطة عليها من فم لم يكن يرى ما يأكل ولم يكن يحس به؟

وكيف له أن يعجز عن تحديد موقعه من الزمن إلا من خلال الصلوات الخمس التى كان يؤديها تحت رقابة السجان؟

وكيف له أن يراوح التفكير فى كل ما يتوقعه من نوائب تحيق بالثورة التى كانت حلما له بينما هو يرى نفسه بعيدًا جدًا عن الأحلام وإن كان فى قلب الكوابيس؟

(٤)

يستعيد وائل غنيم مرة بعد أخرى طوال تلك الأيام جملة خاطبته بها زوجته حين أنهى إليها قراره بالسفر إلى مصر ليكون بالقرب من الثورة بل ليكون فى القلب من الثورة، وهو يجد فى

مضمون الحكم (بالأنانية) الذى حكمت به عليه زوجته قدرًا كبيرًا من الصراحة والصدق والعدل فهو أنانى لأنه لا يفكر فيها ولا فى ولديها مع أنهم كانوا ولا يزالون فى أشد الحاجة إليه، لكن وائل غنيم يستعيد مخزونه الثقافى والفكرى والدينى فيخرج سريعا من هذا التأنيب للذات إلى نوع من أنواع تمجيدها بالرضا العميق عما اتخذه من قرار صائب:

«قبل مغادرة المنزل، جلست مع أبنائى قليلًا قبل أن يخلدوا للنوم، وشرحت لإسراء أن سبب سفرى هو حضور مظاهرة ضد حسنى مبارك لأن المصريين لا يريدونه أن يكون رئيسهم بعد الآن، كانت إسراء تعرف من هو مبارك، فقد كنت كثيرًا ما أحرص على الحديث معها عن الوضع فى مصر. شرحت لها أن مبارك وحكومته مسئولون مسئولية مباشرة عن تدنى أحوال مصر. أما آدم ابنى فكان أصغر من أن يفهم تمامًا أسباب مظاهرات ٢٥ يناير. طلبت منهما أن يُعامِلا بعضهما البعض معاملة طيبة، وألا يُرهقا والدتهما طوال فترة غيابى، ثم احتضنتهما وأخبرتهما أننى سأفتقدهما جدًّا وأننى سأعود لهما فى أسرع وقت ممكن.. كنت أقول ذلك وفى قرارة نفسى لا أعرف متى سأعود».

«بعد تجهيزى لكافة ملابسى رأيت نظرات القلق والخوف على وجه زوجتى لم تكن خائفة وقلقة فقط، بل كانت أيضًا غاضبة. أخذتْ تُعاتبُنى على كل ما فعلْته خلال الأشهر الأخيرة والذى كان بالأساس على حساب حياتنا الشخصية وتربية أولادى، وصفَتنى فى نقاشها معى بالأنانى، لأننى لم أفكر فى تبعات وعواقب ما أقوم به عليها وعلى آدم وإسراء. سألتنى ماذا إن تعرضَتْ حياتى للخطر وحدث لى مكروه، من سيرعاهم من بعدى؟ كنت مُتفهمًا لمشاعرها، وكانت مُحقّة فى كل شىء، ولكن ردى عليها أن الأمر أصبح أكبر من أن أفكر فى عدم المشاركة فيه، وأنه لا يمكن أن أدعو لمظاهرة وأجلس فى بيتى لأتابعها، وطمأنتها أننى سأكون بخير».

(٥)

كتب وائل غنيم كتابه هذا بقدرة عالية على توظيف نصوص سابقة له هو نفسه فى السياق الجديد الذى يستعيد به التجربة.

وهكذا تمكن من أن يدمج فى كتابه الجديد كثيرًا من النصوص التى كتبها هو (وغيره)

على صفحة خالد سعيد (وشقيقاتها) وهى نصوص الدعوة إلى الثورة ورسم ملامحها وسماتها وخطواتها وانفعالاتها وتحدياتها..

بل إنى أكاد أقول: إن نجاح وائل غنيم فى توظيف هذه النصوص الفسيبوكية والتغريدية السابقة بلغ الحد الذى يجعلنا نكاد نرى النصوص الجديدة وكأنها «الأرضية» ولا أقول «الخلفية» التى تظهر عليها نصوص الثورة والتى تتيح لهذه النصوص أن تترابط مع بعضها البعض لتقدم لنا هذه الملحمة العبقرية التى يضمها كتاب «الثورة» الذى أصدرته دار الشروق بقلم وائل غنيم..

(٦)

ومن الحق أن نقول: إن حركة الصدق والصدقية فيما كتبه وائل غنيم قد سيطرت على ما كتب بحيث جعلت من نصوصه المتعددة والمتباينة نصا واحدًا يسيطر على الحدث ولا يجرى وراءه، وربما كان أكبر دليل على تمكن وائل غنيم من رواية أحداث كتابه، إننا لا نكاد نحس فى أى لحظة أن وائل غنيم يتتبع الحدث أو يرويه فى صورة تستعيد الذكرى، بل إننا نراه مسيطرًا تمامًا على الحدث فى كل السطور التى رواها، حتى وهو يعترف أمام ضباط أمن الدولة، وحتى وهو يخضع للتعذيب، وحتى وهو يلجأ إلى ذكر التفصيلات الحاسوبية السرية لهم من أجل أن يكف عن نفسه أذى رجال البوليس.

(٧)

ومع هذا كله فإن وائل غنيم كان حريصًا كل الحرص فى كتابه على أن يروى بإختصار قصة الخدعة التى تعرض لها على يد حسام بدراوى فى اليوم الذى سبق تنحى حسنى مبارك، حيث دعاه هو وعمرو سلامة ومصطفى النجار وخالد البرماوى للقاء مبارك، فإذا بهم يلتقون أولا بوزير الداخلية محمود وجدى ثم يصطحبهم للقاء أحمد شفيق رئيس الوزراء ثم بعد الانتظار فى مكتب أحمد شفيق فى الطيران المدنى يدخل إليهم مجدى راضى ويبدأ فى حوار عبثى معهم، ثم إذا بالحقيقة المرة تتكشف معلنة عن مؤامرة جديدة:

«استمرت الأحداث الجانبية بين الجميع حتى فوجئنا بأصوات أقدام كثيرة تتوجه للغرفة، وتوقع الجميع أن رئيس الوزراء على وصول وأن الاجتماع سيبدأ، إلا أننا فوجئنا بمجموعة تتجاوز ثمانية شباب يحملون أعلام مصر يدخلون إلى القاعة ومعهم الفنانة عفاف شعيب التى كانت نادت على التليفزيون بانتهاء المظاهرات، وكذلك دخل معهم أحد المصورين بكاميرا للتصوير، وهنا أدركنا أننا فى فخ، وأن ما يحدث لا يعدو كونه استدراجًا لوضعنا فى صورة تُذيعها الفضائيات لمؤتمر حوار بين معارضى الثورة ومؤيديها لإيصال صورة واهمة للجميع أن الأزمة فى طريقها للحل. كان الهدف إظهار أن هناك انقسامًا شديدًا فى صفوف الثوار، وأن منهم من أصبح راضيًا بوعود الرئيس ويرغب فى الوصول لحل وسط».

(٨)

وهنا يبدأ الوعى الثورى لشباب ٢٥ يناير فى الظهور الفاعل:

«وقفنا جميعًا وبادر مصطفى النجار بالخروج من القاعة وخرجنا خلفه، وهنا تحدثتُ بعصبية لضابط أمن الدولة وسألته: «بقه كده يا رشدى! بتضحكوا علينا؟ جايبينا نتصور؟ إنتم بتعملوا علينا تمثيلية؟ فاكرين إننا نفسنا نتصور ونطلع فى وسائل الإعلام مع السادة الوزراء؟».

«اقترب منى وزير الداخلية ورئيس مباحث أمن الدولة، واستمررت فى نبرتى الحادة وصوتى المرتفع: «للأسف واضح إنكم مافهمتوش الشباب.. فاكرين إن كل حاجة فى الدينا بتخلص بصفقة.. فاكرين إننا جاهزين للقعدة على ترابيزة مفاوضات تفرط فى حق الشهداء وننبسط بصورة مع وزير أو رئيس وزراء!!».

«قاطعنى وزير الداخلية وطلب منى الهدوء، وأن هناك سوء تفاهم كبيرًا وأن أترك له فرصة للحديث. قال لنا: إن ما حدث لا يعدو كونه صدفة، لأن هؤلاء الشباب لديهم أيضًا اجتماع تم تحديده مُسبقًا مع رئيس الوزراء، وأنهم دخلوا للقاعة لانتظار الفريق أحمد شفيق كما أن رئيس الوزراء انتهى من اجتماعه، وبالفعل شاهدنا باب غرفته يُفتح ويخرج منه بعض الشخصيات وخرج مُرحِّبًا بنا وكأنه لا يعرف ما كان يحدث، سأل وزير الداخلية عن سبب الخلاف والصوت العالى، فأخبره بما حدث على أنه سوءُ تفاهم، وهنا رحّب بنا وقال: «أهلًا

بالشباب، اتفضلوا فى مكتبى، أنا فعلًا عندى ميعادين والموضوع فعلًا اتفهم غلط، أرجو إنكم تدخلوا بس معايا ونقعد ونهدأ عشان نتكلم مع بعض».

(٩)

وفى مقابل الوعى الثورى اليقظ نرى رئيس الوزراء مضطرا إلى أن يبدو فى صورة الغائب المغيب عن الصورة:

«أظهر رئيس الوزراء دهشة مصطنعة

وسألنى: هو أنتم المفروض هتقابلوا الرئيس؟ أنا ما عنديش أى تعليمات بالموضوع ده! وهنا وضحت الرؤية وبدا لى وقتها أنه قد تم استدراجنا بالفعل لمشهد إعلامى يستفيد منه النظام.

قلت له محتفظًا بهدوئى: «الاتفاق كان مع الدكتور حسام بدراوى بأننا سنلتقى الرئيس، لأنه قرر التنحى وأخبرنا أن حضرتك على علم بذلك، فرد علىَّ الفريق أحمد شفيق بأنه ليس على علم بأى لقاء مرتب مع الرئيس، فاستأذنته، وفتحت الهاتف وطلبت رقم الدكتور حسام بدراوى، وفعّلت خاصية الصوت العالى فى المحمول حتى يسمع الجميع الحوار. استمر رنين الهاتف لفترة ولم أجد ردًّا على الخط الآخر، وهنا اشتعل الغضب بداخلى وبدأت أصدق ما قاله لى مصطفى وخالد فى السيارة، وأن السياسة لعبة قذرة، ويجب ألا ننخدع بالمظاهر ونبنى قناعتنا على أساس صدق نوايا الطرف الآخر».

«حاولت مرة أخرى الاتصال، وهنا التقط الدكتور حسام الهاتف، فأخبرته بما حدث، فأكد لى أنه بالفعل تم التنسيق على ميعاد، ولكنه غادر القصر الرئاسى ولا يعرف إذا ما كان هناك أى تعديلات، فطلبت منه الحديث مباشرة مع الفريق أحمد شفيق، وأعطيت الهاتف له فتحدث معه وكرر له ما ذكره لنا بأنه ليس لديه أى تعليمات بهذا اللقاء، وكان الحديث مقتضبًا وانتهى سريعًا».

■ ■ ■

الباب الخامس

قراءتان واعيتان لحربين

الفصل العاشر

حرب الخليج والفكر العربى

كتاب الدكتور عبدالمنعم سعيد

(١)

أتيح لى أن أقرأ كتاب «حرب الخليج والفكر العربى»، لمؤلفة الدكتور عبد المنعم سعيد، فانتشيت وأنا أجد فى لغتنا العربية الجميلة وفى زماننا هذا (الجميل أيضا) مثل هذا الكتاب الذى لم تسعد به لغتنا منذ مجموعة الكتب الرائعة التى صدرت عقب انتصار أكتوبر الرائع.

ومن نافلة القول أن نذكر أن الكتابة السياسية فى السنوات السابقة قد استقطبت بفضل الظاهرة الموازية لظاهرة «شباك السينما» إلى موضوعات أخرى نعرفها جيدًا، ونطالع عناوين الكتب الصادرة فيها كل أسبوع تقريبا. أما الكتاب السياسى الذى يخاطب الفكر والعقل قبل أن يخاطب الغرائز والشهوات ويتناول الحقائق بدلًا من أن يرسخ الشائعات فغائب منذ زمن طويل.

(٢)

لكننا اليوم نقرأ كتابًا موضوعيا تتجلى فيه «الوحدة الموضوعية» التى يتغياها نقاد الشعر كما لا تتجلى إلا فى القليل من القصائد..

وتظهر فى ثنايا الكتاب روح كاتب باحث أوتى من القدرة على التحليل الصحيح والتقييم الدقيق والعرض الصائب أقدارًا أتاحت له ولنا فى النهاية عملًا علميًّا حقيقيًّا يزيد من ثقافتنا

وإدراكنا بالموضوع، وفى الوقت ذاته يرتفع بقدرة عقولنا على قراءة الأحداث وتأمل الوقائع حين يقودنا فى أناة ولطف إلى الحقائق المستترة فيكشف عنها الحجاب من دون أن يستعلى على أفكارنا أو أن يمن على الحقائق نفسها.

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب كان فى الأصل مجموعة مقالات ممتازة كتبها الدكتور عبد المنعم سعيد لتنشر جنبًا إلى جنب مع فصول كتاب محمد حسنين هيكل عن حرب الخليج كدراسة نقدية لذلك الكتاب.. وعلى الرغم من أن المؤلف الدكتور عبد المنعم سعيد يثبت فى عنوان الغلاف أن كتاب «دراسة نقدية لكتاب هيكل» إلا أننى أعتقد أن كتاب الدكتور عبد المنعم سعيد على صغر حجمه قد عرض حرب الخليج على القارئ العربى بأعمق (ولا أقول الآن أروع ولا أصدق ولا أبلغ... مع حفظ حقه فى هذه الصفات) مما عرضها كتاب هيكل الذى يفوق حجمه أضعاف كتاب الدكتور عبد المنعم سعيد.

(٣)

أقول: إن تعمق كتاب الدكتور عبد المنعم سعيد قد فاق تعمق كتاب هيكل بمراحل يصعب تقديرها، ولا أعتقد أننى بحاجة إلى تعدادها، فهى حقيقة واضحة لا يجد القارئ للكتابين نفسه وهو يتلمسها واضحة جلية إلا وهو يشفق على هيكل حين أبى على نفسه (وقد تقدم به السن وحنكته التجربة) إلا أن ينحاز بعيدًا عن الحقائق، وأن يلوى الحقائق فى اتجاهات متفرقة فإذا بطاقته الجبارة وقد استغرقت فى محاولات لى الحقائق على السطح ومن خارج السطح دون أن يجاوز هذا السطح إلى أى عمق له، ولا حتى ظهر السطح من الداخل!

لا أحب بهذا أن أنسب الفضل فى كتاب الدكتور عبد المنعم سعيد إلى العيب البارز فى كتاب هيكل، ولكنى مع هذا أكاد أغبط الدكتور عبد المنعم سعيد على هذا الحظ المواتى.

(٤)

وأحب أن أعترف للقارئ بأننى حين طالعت عنوان الكتاب كنت أقدر لنفسى أننى سأبدأ عرضى للكتاب (إذا قدر لى حظى أن أعرضه على القراء) بعتاب أستاذ باحث أكاديمى ممتاز

كالدكتور عبد المنعم سعيد أن يصبغ كتابًا له (أيا كان) بهذه الصفة التى ينبئ عنها العنوان الفرعى...

وفى الساعات التى بدأت أتأمل فيها الصفحات الأولى من كتاب الدكتور عبد المنعم سعيد وما حوته من تقدير خاص للأستاذ هيكل كان الظن عندى يتنامى أن هذا المؤلف الطيب لم يزل واحدًا من أهل الفكر الذين ينتمون إلى الجيل الذى فرض عليه أن يكون مجموعة واحدة كبيرة جدًّا من دراويش الطريقة الهيكلية...

ولأن فترة الدروشة كانت بالمصادفة من أحلى فترات عمر هذا الجيل فإنهم لا يزالون يذكرون فترة الدروشة بشىء من الاستمتاع الذى ربما يمكن إرجاع السبب الحقيقى فيه إلى الفترة ذاتها، لا إلى الدروشة فى حد ذاتها.. كأن يحدثك أحدهم عن لحظات السعادة التى كانت تجتاحه عقب قراءة مقال هيكل صباح الجمعة حين يخرج إلى الحدائق مع محبوبته.. فى حين أن العلاقة مفتقدة بين الحدثين ولكن السعادة كانت موجودة على أى حال!!

(٥)

قد يظننى القارئ (الذى ينتمى إلى جيل الدكتور سعيد) أفضت فى الفقرة السابقة فى الحديث عن شىء خارج عن الموضوع..

ولكنى أحب أن أذكر لمثل هذا القارئ شيئًا آخر عن جيلى من الذين يلون الدكتور عبد المنعم سعيد فى السن.. أحب أن أذكر لمثل هذا القارئ ولجيل الدكتور عبد المنعم سعيد أن جيلنا لا يرى رأيهم فى هيكل ولا فى كتاباته، وأن جيلى فى الأغلب الأعم يعرض إعراضًا تامًا عن مثل هذه الكتابات.. لا لسبب موضوعى، وإنما لسبب آخر هو فى الحقيقة أيضا شبيه بسبب استعادتهم النشوة وهم يتذكرون مقال الرجل الأسبوعى ولكنه على النقيض تمامًا من هذا السبب.. كأن يحدثك أحدهم عن لحظات اليأس القاتلة والممتدة التى كانت تعقب قراءة مقال هيكل صباح الجمعة حين لا يكون أمام الواحد منا هو وأقرانه إلا أن يخرجوا من اليأس إلى اليأس..

ولهذا فإن العبارة الأكثر ورودًا على ألسنة هؤلاء هى الدعاء إلى الله ألا يعيد هذه الأيام!

وهم بالتالى – وهذه حقيقة وربما كان لهم عذر قوى – يستعيذون بالله أن يلمسوا (مجرد اللمس) هذه الكتابات والمناخات!!

(٦)

أريد بهذا كله إلى أن أنتقل إلى القول بأن كتاب الدكتور عبد المنعم سعيد كتاب قائم بذاته حتى لو صدر فى ظروف كانت لا تزال تعانى من تأثير ثنائية القطبية... ولكنه فى الواقع قطب منفرد من حيث درس الأزمة دراسة أخرى تفحص الحقائق بالعقل وحده من دون أن تتناولها بالأيدى التى تضع على الحقائق بصماتها فتطمسها، ومن دون أن تتناولها تناول الانتقاء المقصود كتناول الأطفال لبندقة أو نصف بندقة من واجهة الكيك ليثبتوا لأنفسهم وجود البندق لأن الكيك عندهم فى هذه اللحظة لا يستمد قيمته إلا من وجود البندقة!!!

والدكتور عبد المنعم سعيد يثبت لنا حقيقة ما هو أمامنا وهو صادق ودقيق، ولكنه للأسف (وربما لحسن الحظ) بدأ شرحه من مدخل غريب هو نفى القول بأن الكيك يتكون من المكسرات فحسب!!

ولهذا يجدر بنا أن نفهم كتابه على نحو آخر لا يتقيد بهذا الوصف المقتضب الذى وضعه المؤلف كعنوان فرعى على غلاف الكتاب..

يجدر بنا أن نفهمه كقطب واحد فى هذا الموضوع بعد زوال ثنائية القطبية تمامًا وإلى غير رجعة.

(٧)

لا أستطيع الآن أن أقول إنى أسرفت فى الخروج على النص ولكنى أستطيع أن أزعم أنى وصلت بالقارئ إلى لب القضية كلها...

ذلك أنى أستطيع الآن أن أذهب إلى أى من أقرانى المتميزين، فأدعوه إلى قراءة كتاب الدكتور عبد المنعم سعيد بدءًا من الفصل التاسع وبالذات فى صفحات ١١٨ و١١٩ و١٢٠

و١٢١ و١٢٢ و١٢٤ و١٢٥ و١٢٦ و١٢٧ و١٢٨ ثم الفصل العاشر ثم أول الفصول فيقرأها كما يحلو له ثم ليعود فى النهاية إلى المقدمة ليتصفحها تصفح المدركين لكل ما وراء السطور ولكل ما بين السطور.

بل لعلى أتجاوز فأقول: إننى لو كنت قد صادفت الدكتور عبد المنعم سعيد وهو فى طريقه إلى دار النشر لأشرت عليه بأن يؤلف كتابه من مقالاته على هذا النحو: التاسع ثم العاشر ثم الأول...، لا أن يلتزم ما التزم من كتابة مقدمة للفصول العشرة التى نشرها كما نشرت من قبل على هذا النحو.

(٨)

هل لى أن أمتع القارئ معى ببعض عباراته الجميلة التى قرأ لنا بها الحقائق التى استعصت على فهمنا طوال الفترة التى دقت فيها طبول الحرب:

اقرأ مثلا حديثه عن المنتصر والمنهزم فى الحرب:

«ونشبت الحرب. ومرة أخرى فإن أستاذنا (يقصد هيكل) يلخصها فى المواجهة بين العراق والولايات المتحدة مستبعدًا الجانب العربى مقللًا من قيمته إلى أدنى حد. وفى الحقيقة فإن الأستاذ هيكل لم يكن وحده الذى روج لهذه المقولة، فقد شاعت بقوة حتى بين أعضاء التحالف العربى، ووجد البعض الآخر صعوبة فى التأكيد على أن الانتصار على العراق يعد انتصارًا يستحق التنويه والذكر. وهو الأمر الذى استغلته دوائر صهيونية فى الغرب والولايات المتحدة لكى تقلل من الدور العربى فى الحرب، أو تتجاهله كلية. وهكذا فإنه بتواطؤ مقصود أو غير مقصود فإن الصورة التى خرجت للعالم أن العرب سواء كانوا فى معسكر النصر أو معسكر الهزيمة ظهروا كمهزومين. ويكاد الرئيس حافظ الأسد أن يكون الوحيد بين القادة العرب الذى تنبه إلى هذا الوضع وذكر لوزير الخارجية الأمريكى جيمس بيكر خلال جولاته فى المنطقة بعد تحرر الكويت أن العرب لم يكونوا هم الذين انهزموا فى الحرب، وكان فى ذلك يؤكد على الدور العربى من الحرب وأن أمريكا لم تكن تستطيع وحدها أن تحقق النصر».

(٩)

واقرأ هذا التحليل العلمى الذى يعرض به الكتاب حقيقة الدور الذى لعبته القوات المشتركة العربية فى الحرب حين ينبهنا الدكتور عبد المنعم سعيد إلى حقيقة وأبعاد المشاركة السعودية والمصرية والكويتية فى الحرب فيقول:

«... لا ينبغى مطلقًا أن يقلل من الدور الذى لعبته القوات المشتركة العربية فى عملية تحرير الكويت، وهو الأمر الذى تكاد تتجاهله كافة المصادر الأجنبية وحتى العربية.

- فمن بين حوالى ٧٠٠ ألف جندى شاركوا فى القتال كان هناك ١٧٠ ألف عربى تحت قيادة عربية موحدة أو حوالى ٢٤٪ من حجم القوات الكلى. وهى نسبة تزيد كثيرًا على حجم المشاركة الفرنسية فى عملية تحرير فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية، أو حتى نسبة القوات الأوروبية غير الأمريكية التى أسهمت فى تحرير أوروبا من الاحتلال النازى. وبالتأكيد فإنها تزيد كثيرًا على حجم المساهمة المحلية فى عملية تحرير جنوب شرق آسيا من الاحتلال اليابانى خلال نفس الحرب.
- وتزيد هذه النسبة عندما يصل الأمر إلى المدرعات والقوات الميكانيكية العربية التى تحملت عبء اتجاه الهجوم الرئيسى لتحرير مدينة الكويت.
- وحتى بالنسبة للعمليات الجوية فإن القوات الجوية السعودية ومعها قوات جوية من البحرين وقطر والإمارات قامت بحوالى سبعة آلاف طلعة (أو حوالى ٧٪ من عدد الطلعات)، وهى أيضًا نسبة ليست قليلة بالمقارنة بحالات مماثلة لمشاركة القوى الإقليمية للولايات المتحدة فى عمليات تحرير قامت بها أثناء الحرب العالمية الثانية.
- والمعركة الجوية الوحيدة التى حدثت بين طائرات خلال المعارك حدثت بين طائرة سعودية من طراز (إف ـ ١٥) وطائرتين عراقيتين من طراز (ميج ـ ٢٣)، وتمكن الطيار السعودى من إسقاط الطائرتين العراقيتين، وربما لا يجد العرب فى ذلك أمرًا يستحق الإشادة، فالطائرات التى سقطت فى النهاية كانت طائرات «عربية».

(١٠)

ويستطرد الدكتور عبد المنعم سعيد من زاوية أخرى ليتحدث عن الإسهام السعودى:

«والواقع أن المسألة أكبر بكثير فى المعارك الحربية من مجرد حجم وعدد القوات التى شاركت فى القتال. ولذا فإن المشاركة السعودية فى العمليات لم تقتصر على ما قدمته من قوات، وقد كانت القوة الثانية بعد الولايات المتحدة من حيث عدد الجنود والمدرعات والطائرات المشاركة، ولكنها تحملت العبء الأكبر من عمليات الإمداد والتموين اللذين لا غنى عنهما لأى عمليات عسكرية ناجحة. وكانت البنية الأساسية الممتازة للسعودية (موانئ وطرق ومطارات ومدن عسكرية ومراكز قيادة، ووسائل اتصال) عنصرًا أساسيًّا فى النجاح الذى تحقق. إذا أضيف إلى ذلك جهد الاستخبارات والاستطلاع والمشاركة فى الحصار البحرى وعمليات كسح الألغام، فإن الجهد السعودى أكبر بكثير من الأرقام المجردة لإعداد الجنود المقاتلين».

(١١)

وينتقل الدكتور عبد المنعم سعيد إلى زاوية أخرى ليتحدث عن جوانب من الإسهام المصرى فى هذه الحرب:

«... لم تكن المشاركة المصرية مقصورة على الخمسة والثلاثين ألف جندى وضابط المندرجين فى فرقة مشاة ميكانيكية وأخرى مدرعة ومجموعة صاعقة وتوابعهم، وإنما امتد كثيرًا إلى أن مصر كانت محطة الانتقال الرئيسية لقوات التحالف فى طريقها إلى الخليج، فضلًا على جهد الاستخبارات والمعلومات، وكان أساسيا».

(١٢)

وهو يثمن قيمة المشاركات العربية بطريقة ذكية:

«وفى الحقيقة فإن مصر وسوريا اتخذتا قرار المشاركة رغم حساسية الوضع على جبهتى

الجولان وسيناء فى ظل ظرف إقليمى متفجر لا يستطيع أحد أن يتنبأ بتطوراته، وكان قرارا شجاعًا. ولا يستطيع أحد أن يتجاهل قيمة أن دولة قطر أرسلت ثلث جيشها كله يشارك فى تحرير الكويت، ويبلو بلاء حسنًا فى أول المعارك البرية فى الخافجى. وتضرب باقى دول الخليج على صغر حجمها أمثلة أخرى كثيرة. ففى بعض الأحيان فإن كل تكنولوجيا التنصت الأمريكى على تقدمها لم تكن لتفعل شيئا لو لم يكن هناك من يستطيع الاستماع وتفهم اللهجة العراقية، وهو الأمر الذى تولاه فى النهاية ستمائة كويتى، بدونهم فإن التكنولوجيا لا تصير أكثر من أسلاك ومعادن باردة».

(١٣)

على أن الأهم من هذا التحليل لدور القوات العربية المشاركة ضمن قوات التحالف أن يقرأ لنا الدكتور عبد المنعم سعيد حقيقة دور الجيش العراقى فنكتشف أننا كنا شبه أميين تمامًا فى قراءتنا لكل ما حدث، (وليس هيكل وحده كما أحب أن يظهر نفسه! فإنى شخصيًّا لا أزال أثق فى أنه يعرف حقيقة غير التى كتبها للقارئ العربى فى كتابه).

«..... وربما كان أكثر الأدوار العربية التى تم تجاهلها فى المعارك دور الجيش العراقى نفسه. ففى الواقع فإن أحدًا لا يستطيع أن يقلل لا من شجاعة الجندى العراقى، ولا من كفاءته العالية التى ظهرت خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣، أو فى حرب الثمانى سنوات مع إيران، لكن فى حرب تحرير الكويت فإن هذا الجندى نفسه اتخذ سلوكًا مختلفًا. فبعد الغزو مباشرة بدأ أفراد من الجيش فى اللجوء إلى القوات العربية القريبة ويحملون معهم معلومات مهمة، وسرعان ما أصبح الآحاد عشرات، ثم أصبح العشرات مئات قبل بدء العمليات العسكرية. وبعدها مباشرة تزايد العدد بسرعة كبيرة، ومع بدء العمليات البرية فإن أكثر من ثمانين ألفًا من القوات العراقية (أو حوالى نصف القوات الباقية فى مسرح العمليات) تركت أسلحتها واستسلمت لقوات التحالف، وكان ذلك تصويتًا صامتًا على رفض قرار الغزو العراقى للكويت، وإضرابًا عمليًّا عن المشاركة فى حرب زجتهم فيها القيادة العراقية دون مبرر مقنع. وبدون هذا الموقف فإن تكلفة الحرب فى الأرواح والمعدات كانت ستكون أكثر بكثير مما انتهت عليها».

«وبعد ذلك كله فإننا لابد أن نشعر بالأسى: (يقول الدكتور عبد المنعم سعيد) عندما يقول الأستاذ هيكل للأستاذ يوسف القعيد فى مجلة «المصور القاهرية»: «كان حوار الصراع مباشرًا بين بغداد وواشنطن. ولم يكن هناك طرف آخر!!!».

(١٤)

أظننى أغفل قيمة الفكر الاستراتيجى فى هذا الكتاب إذا أنا تجاوزت الإشارة إلى تلك الحقائق التى دلنا عليها هذا المؤلف وهو يستعرض فى سلاسة شديدة تتميز بالدقة المتناهية حقيقة حساب الخسائر بين ما كان مقدرًا ومتخيلًا، وما حدث بالفعل.

وفى الواقع فإنى لا أستطيع أن أنقل كل الحقائق التى ساقها فى هذا المجال بتدفق شديد ومن دون أن يتعالى بحقائقه فيصنفها أو يقسمها، ولأنى أيضا لا أستطيع أن أحرم القارئ من هذه المادة فسأقتطف للقارئ (مع بعض التصرف وإعادة الترتيب) بعض النقاط التى ترينا كيف أننا كنا عرضة لأن نظل أسرى أحاديث المقهى فى فهمنا إذا لم يتح لنا مثل هذا المؤلف، وهذا المؤلف الاستراتيجى:

- تراوحت كافة التقديرات حول تكلفة الحرب على الأمة العربية ما بين نصف تريليون وتريليون دولار، بحسابات التدمير الكلى للعراق والكويت، وتكاليف المعارك العسكرية، وحرائق النفط وخسائر البيئة.
- هذا التقدير بعد الحرب تواضع ليتراوح ما بين مائة وخمسين إلى مائتى مليار دولار، شاملة عودة الكويت والعراق إلى أوضاع ما قبل الحرب. وهذه خسارة فادحة بكل المقاييس ولكنها أقل بكثير مما كان متوقعًا.
- كان مقدرًا أن تتراوح تكاليف إعمار الكويت ما بين مائة ومائتى مليار دولار، والآن فإن التكلفة لن تتجاوز ستين مليار دولار يعود الجانب الأعظم منها (٤٠ مليار دولار) إلى أن الحكومة الكويتية قررت أن تعوض أفراد الشعب الكويتى عن كافة الخسائر والتضحيات المادية والمعنوية التى تحملوها خلال عملية تحرير بلدهم من الاحتلال، ولعلها السابقة الأولى من نوعها فى التاريخ.

- كان مقدرًا أن تكون خسائر التحالف العربى والدولى من الأفراد بعشرات الألوف، لكن ما حدث أنها لم تتعد المئات. وعلى الجانب العراقى فإن أول التقديرات صورت أن العراق خسر ١٥٠ ألف قتيل، ثم أخذ هذا الرقم فى التواضع حتى وصل إلى ١٥ ألفا، ونتوقع أنه بعد أن تزول دواعى الكتمان على الجانب العراقى أن نجد هذا الرقم أكثر من الحقيقة.

(١٥)

ونأتى إلى الحقائق على الجانب العراقى:

- على عكس ما هو شائع فإن العراق لم تطله يد التدمير بالقدر الذى حدث لألمانيا مثلًا، ولم تكن بغداد «درسدن» أخرى. الواقع الذى انتهت إليه الحرب كان أقل من ذلك بكثير. فمحطات الطاقة وتنقية المياه لم تدمر، كما قال الأستاذ هيكل فى طبعة كتابه العربية، وإنما أعطبت فى معظمها، كما ذكر فى طبعة كتابه الإنجليزية.
- بعد عام من الحرب فإن ثلثى هذه المحطات عادت إلى سابق عهدها، وما تبقى إما أنه تنقصه قطع غيار، أو لأنه واقع فى مناطق كردية، لا تسيطر عليها الحكومة العراقية أو لا ترغب فى إصلاحها لأسباب ليس هنا مكان بحثها. وبعد عام واحد من الحرب فإنه من بين ١٣٣ جسرًا جرى ضربها خلال الحرب فإنه تم إصلاح تسعين منها. وتفيد المصادر العراقية أيضًا أن قدرة العراق الآن على إنتاج النفط يمكن أن تصل إلى ثلاثة ملايين برميل يوميًا، وهى تقترب كثيرًا من قدرته قبل الحرب.

(١٦)

ويصل الكتاب بعد هذا إلى التاريخ فى عموميته من حيث هدف الحرب ونتيجتها فيقول:

- ربما كانت أهم علامات لطف الله بالعرب بعد قضائه النافذ، والتى تستحق الشكر والحمد، أن الكويت تحررت بعد سبعة شهور فقط من الاحتلال. وهذه سابقة لم يعرفها التاريخ المعاصر، فضلًا على القديم،

- فقد تم احتلال فرنسا خمس سنوات كاملة خلال الحرب العالمية الثانية.
- وروسيا أربع سنوات فى نفس الحرب.
- وسيناء خمس عشرة سنة بعد عدوان ١٩٦٧.
- وكمبوديا عشر سنوات بعد غزوها من فيتنام.
- ومازالت الجولان وفلسطين محتلة منذ عقود.

(١٧)

ولنقرأ أخيرا هذا التقييم الدقيق الذى يقدمه عبد المنعم سعيد لما حدث فى حرب الخليج على مستوى غرفة العمليات:

- إنه لأول مرة فى تاريخ العرب الحديث تكونت قيادة عسكرية عربية موحدة بالمعنى المعاصر للكلمة. قبل وأثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ تكونت قيادة عسكرية موحدة بين مصر وسوريا، ولكن مهمتها لم تزد على التنسيق بين القيادات العليا، ولم تنصرف إلى الإدارة المتكاملة للعمليات العسكرية. وهو الأمر الذى حدث لأول مرة خلال حرب الخليج الثانية بين قوات من تسع دول عربية، وهى تجربة جديدة للعمل العربى المشترك لم تحدث من قبل.
- وللأسف - وفيما نعلم - فإن تجربة هذه القيادة المشتركة لم تدرس، وكان يمكن الاستفادة منها فى المستقبل. فقيادة قوات الحلفاء التى تكونت خلال الحرب العالمية الثانية، كانت التجربة التى تم الاستناد إليها فى إنشاء حلف الأطلنطى بعد أربع سنوات من انتهاء الحرب عام ١٩٤٩.
- إن الجيوش العربية التى اشتركت فى الحرب، خاضت تجربة على أعلى مستوى متوافر فى العالم من التكنولوجيا. وتعرضت لخبرات فى إدارة المعارك المشتركة لم يكن ممكنًا أن تكتسبها فى عقود، وهى خبرة غير قليلة الأهمية للعسكرية العربية.
- إنه رغم الانقسام الهائل بين الشعوب العربية، فإن تجربة الأزمة - الحرب - عمقت

من الالتحام بين الشعب الكويتى والشعوب العربية فى مصر وسوريا ودول مجلس التعاون.. فبعد الغزو ما يصل إلى ٤٠٠ ألف لاجئ كويتى تم استيعابهم بسرعة كبيرة وتأمين احتياجاتهم من حيث الإعاشة والتعليم والصحة. وفى دول الخليج العربية – التى استوعبت الغالبية العظمى من اللاجئين (٣٥٠ ألفًا) – فإن الالتحام والتضامن بين الشعوب العربية وصل إلى درجة لم تبلغ قامتها بعد كافة مؤسسات مجلس التعاون.

(١٨)

على أن الأهم من هذا كله فى رأيى ما فعله الدكتور عبد المنعم سعيد وهو يبعث فينا روح الأمل حيث يضع إسرائيل فى حجمها الحقيقى بعدما كنا نظنها المستفيد الوحيد من حرب الخليج!!

«ورغم أن إسرائيل حققت كثيرًا من المكاسب تبدأ من عملية الحصول على نوعيات متقدمة من الأسلحة، ومعونات دولية هائلة، وتحقيق أكبر معدل للهجرة اليهودية، وتحجيم قوة عسكرية وتكنولوجية عربية مهمة، فضلًا على أن كل انقسام عربى فى النهاية هو مكسب صاف لها، إلا أن الحرب ذاتها أظهرت تواضع المكانة الاستراتيجية للدولة العبرية فى التحالف الغربى، بعد أن ثبت أنها لم تكن عونًا للتحالف وإنما عبئًا عليه وعلى حركته. وهو تراجع يضاف إلى التراجع الناجم عن سقوط الاتحاد السوفييتى وانتهاء الحرب الباردة».

(١٩)

وعلى مستوى العلاقات الدولية نجد المؤلف يضع حقائق كثيرة عن «الاتصال العالمى» أمام أعيننا، من أهمها تأكيده على جدوى الالتزام بالقانون الدولى حتى فى عصر لا يحترم القانون الدولى:

«إن أغلبية العرب – اثنتى عشرة دولة – وقفت موقفًا حاسمًا ضد الغزو العراقى، وشاركت تسع دول فى عملية تحرير الكويت. وهو موقف يحسب لهم لا عليهم أخلاقيًّا وقانونيًّا، فقد طبقوا

على العربى الشقيق نفس المعايير التى يريدون تطبيقها على الخصوم الحاليين أو المحتملين. وقد يرى كثير من الكتّاب العرب أن الأخلاق والقانون ليست عملة سائدة فى العلاقات الدولية، وأن الغرب له مكيالان وأحيانًا عشرة مكاييل للتعامل مع العالم. وهذا صحيح، وفى زمن يتزايد فيه الاتصال العالمى بوتائر سريعة، فإن الاتساق الأخلاقى والتمسك بالقانون الدولى هو مكسب لا ينبغى التفريط فيه».

(٢٠)

تقرأ هذا الكتاب فتحس فى عقلك قدرة على استيعاب ما حدث بقدر ما اتسعت مداركه فى تفهم الجوانب المختلفة للأزمة التى شىء لها – لأسباب كثيرة – أن تبقى بعيدة عن التناول الجاد والتحقيق العلمى الدقيق.

ومع هذا فإنك لا تعانى وأنت تقرأ هذا الكتاب مما قد تعانيه من كتاب سياسى آخر.. اللهم إلا أن تعانى من تواضع المؤلف وهو يقرأ لك الأحداث بعمق وقدرة لأنك اعتدت أن يكون حديث غيره من المؤلفين عن أنفسهم زاعقًا.

ولا يخلو الأمر مع هذا كله من أن تستمتع بعبارات جميلة موحية كقول الدكتور عبد المنعم سعيد: إن الحبر الذى سال من حرب الخليج على الصفحات كان أكثر من الدماء التى سالت فى ميادين القتال...

ولا يخلو الأمر مع هذا كله من أن تتحفظ على بعض عباراته الأخرى التى لم يقصد بها إلا إمتاعك حين يقول مثلًا إنه إذا كان الفقة الاسلامى يعطى للمجتهد الذى أخطأ أجرًا والذى أصاب أجرين فإن الأستاذ هيكل يستحق ثلاثة أجور، لأنه أصاب وأخطأ معًا.. وإذا كان الأمر كذلك فإن الدكتور عبد المنعم سعيد يستحق أربعة أجور لأنه أصاب وأصاب!!

■ ■ ■

الفصل الحادى عشر

سنوات الإعداد وأيام النصر

كتاب اللواء طه المجدوب

(١)

يمثل هذا الكتاب مرجعًا ذا قيمة متميزة للتاريخ السياسى والعسكرى لمصر فى أحلك سنوات تاريخها (١٩٦٧ - ١٩٧٣)، وهى السنوات التى توجت بعد هذا بحرب أكتوبر ١٩٧٣.

وقد آثر مؤلفه اللواء طه المجدوب أن يكتبه بعيدًا عن الذاتية، رغم مشاركته العسكرية فى مواقع قيادية فى هذه السنوات المجيدة من تاريخ أمته، ومع هذا يظل دوره محفوظًا ضمن ما كتب وسجل عن جهود العسكرية المصرية كلها فى هذا الوقت.

(٢)

بدا هذا الكتاب وكأنه رد إيجابى على بعض دعوات روج لها بعض المؤرخين بأن حرب الاستنزاف لم تكن بالأمر الضرورى، وأنها كانت استنزافا لمصر وقواتها المسلحة قبل أن تكون استنزافا للعدو. ومن هذه الناحية فإن الكتاب يعتبر ردًّا موسعًا وموثقًا فى الوقت ذاته، وإن كان بالطبع يؤكد أن مثل هذه الرؤية المضادة عند بعض المؤرخين لها ما يبررها مما حدث بالفعل.

«لقد تعرضت أحداث يونيو ١٩٦٧ وما أعقبها من تطورات جرت خلال السنوات الخمس التالية (١٩٦٨ ـ ١٩٧٢)، لكثير من الجدل وقليل من الحوار والتحليل. وتناولها العديد من الكتاب المصريين كل من وجهة نظره، كما خاض فيها عدد كبير ممن ساهموا فى هذه الأحداث

من القادة العسكريين، ولكن معظمهم اتخذ مما رواه مادة للدفاع عن النفس أو تمجيد للذات، مع ادعاء الصواب لنفسه ونسبة الخطأ إلى الآخرين».

(٣)

ويتناول المؤلف هذا المعنى فى كتابه بنوع من الاستعلاء على وجهات النظر الأخرى إلى حد وصفها بالمهاترة فيقول:

ويشير اللواء المجدوب إلى دوره فى هذا الكتاب:

«من هذا المنطلق وجدت من الواجب أن أسهم بجهد متواضع فى أن أوضح للأجيال الصاعدة التى ستحمل مسئولية بناء المستقبل كيف حدثت الهزيمة، وكيف تحقق النصر. وأن هذا النصر لم يكن طوع البنان، بل كان ثمرة جهود هائلة.. ثمرة رواها بسخاء عرق ودماء أبناء هذا الوطن دون انقطاع على مدى ست سنوات متصلة.. فى خلية نحل لم تهدأ.. فى فترة تاريخية لا يمكن أن تمر دون تقويم وتقدير ووفاء، فإن لها الفضل الأول فى تحقيق نصر أكتوبر بكل أبعاده الاستراتيجية والعسكرية والسياسية، لابد أن تعلم الأجيال القادمة بأمانة حجم التضحيات التى أعطاها الأجداد والآباء، وتحملها رجال القوات المسلحة بكل الصلابة والإيمان فيما بين عامى ١٩٦٧ و١٩٧٣، عامى الهزيمة والنصر. لذلك سوف أحاول فى سياق الحديث أن أجيب ـ بقدر استطاعتى ـ عن كل ما دار من تساؤلات، بعضها موضوعى، وبعضها غير موضوعى، ولكن فى الحالتين بعيدًا عن أى مهاترات شخصية أو حسابات ذاتية أو قصص عنترية، بقدر ما يفرضه الضمير الوطنى والقومى، وما تعززه النوايا الخالصة لله والوطن والتاريخ، مضافًا إليها خبرة الممارسة والمعايشة على مدى ربع قرن من الصراع العسكرى منذ أن بدأ فى عام ١٩٤٨».

(٤)

ويشير اللواء المجدوب أيضا إلى دوره هو شخصيًّا فى الحرب فيقول:

«لقد حملت القوات المسلحة الأمانة وقدمت التضحيات، بل وتحملت ظلمًا وزر المخطئين، ولكنها انتفضت وانتصرت بعد أن قلبت وصححت الأوضاع وأعادت لمصر ما فقدته من عزة وكرامة.

وإننى إذ أسمح لنفسى بأن أخوض فى هذا الحديث، فذلك بالاعتماد على مسئوليات شاركت فى حملها، وأحداث جسام عشتها مقاتلًا مخططًا ومؤرخًا عسكريًّا، شارك فى كل الحروب وفى تسجيل وتحليل التاريخ الرسمى لهذه الحروب على مدى الصراع الممتد بين العرب وإسرائيل».

(٥)

ويصف اللواء طه المجدوب كتابه بأنه محاولة جادة ومخلصة تستهدف تسليط الأضواء على خفايا الجهد الكبير، والمسئوليات الجسيمة والتضحيات الضخمة التى تحملتها القوات المسلحة وقياداتها فى صلابة وعزم وصبر طويل على مدى سنوات ست من الإعداد للثأر واسترداد الأرض والكرامة.

وهو يؤكد على أن القوات المسلحة وقياداتها لم تكن «جثة هامدة» كما وصفتها إسرائيل، ولكنها كانت «خلية من العمل الدؤوب، سواء فى مجال الفكر أو فى مجال التطبيق العسكرى».

وهو حريص على أن يصحح للأجيال المعاصرة حقائق كثيرة قد تكون غائبة عنها، وعلى أن يخلّصها من مأساة التشويش والبلبلة التى عانت منها نتيجة لما فُرض عليها من حشو ومغالطات متعلقة بأحداث هذه الفترة الحرجة من تاريخ مصر الحديث والتى جاءت فى أعقاب هزيمة قاسية. وحتى نرحم هذه الأجيال، يقول المجدوب:

«علينا أن نلتزم بالحقيقة ونتمسك بالكلمة الصادقة، فى محاولة لإثراء المكتبة الوطنية والعربية العسكرية بجرعة دسمة من الحقائق التى شكلتها نيران المعارك، وصاغتها التجارب المرة والخبرات المتنوعة، مصحوبة بتحليل أمين لفترة من أدق الفترات التى مر بها تاريخ مصر الحديث من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٣. لقد شكلت هذه السنوات سنوات المخاض لميلاد النصر فى ملحمة أكتوبر المجيدة».

(٦)

وللواء المجدوب نظرية مهمة فى هذا الكتاب، وهو يرى على سبيل المثال أن الهزيمة هى التى أفرزت النصر:

«فقد أثارت هذه المرارة المزدوجة عزيمة النضال والرغبة فى مقاومة الظلم، وساعدت كثيرًا على شحذ الهمم، وشحن الصدور بإصرار مكبوت على رد الكرامة واستعادة الأرض.. ظل محتبسًا سنوات طويلة إلى أن تفجرت طاقاته يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ عبر القناة وفوق خط بارليف. وهنا يمكن القول إن رَحِمَ الهزيمة قد ولد شحنة معنوية هائلة، وإصرارًا على إزالة آثارها، والاستعداد ليوم الثأر وتحقق النصر مهما بلغت التضحيات».

« وفى سبيل ذلك احتمل جيش مصر هذا العبء الجسيم فى صمت، وراح يعمل بكل الجدية.. وهو يسمع من آن لآخر كلمات مسموعة تبثها حملات الحرب النفسية التى تحاول إهالة التراب على مصر وجيشها. لكنها لم تنجح أبدًا فى أن تثبط الهمم أو تقتل القيم الأصيلة التى نشأ عليها شعب مصر وترعرعت فى ظلها حضارته القديمة. تلك القيم التى يتمسك بها رجال القوات المسلحة، الذين ظلوا طوال سنوات ست من المعاناة يبذلون الجهد والعرق ويجودون بالدم والروح.. استعدادًا ليوم الفصل».

(٧)

وهو يعتقد أن القيادة المصرية اتخذت قرارها بمجرد توقف القتال فى يونيو ١٩٦٧.

«وكـان لزامًا على مصر أن تواجه قدرها، وأن تتخذ قرارها. إنه قرار الاستعداد لـ«حرب التحرير» القادمة على الطريق، وما يتطلبه ذلك من إعادة تشكيل أوضاعها وسياساتها واستراتيجيتها العسكرية، وإعادة تنظيم جبهة القتال وبناء المقاتل المصرى والقوات المسلحة، وإعداد للجبهة الداخلية للمشاركة فى تحمل المسئوليات. ولتبدأ المسيرة الشاقة نحو تحرير الأرض.. عن إيمان بأن النصر لا يمكن أن يأتى من فراغ».

«وهكذا اتخذت القيادة المصرية قرارها بمجرد توقف القتال فى يونيو ١٩٦٧، بالبدء فورًا فى «إعادة تنظيم وتسليح القوات المسلحة»، بحيث يشير ذلك جنبًا إلى جنب مع «إعادة بناء المقاتل المصرى»، من خلال صقله ودعم معنوياته ورفع مستواه التدريبى القتالى والفنى، من أجل أن يواجه «أسطورة الجندى الإسرائيلى الذى لا يقهر» ويسقطها بنفسه ويؤكد كذبها».

(٨)

ويؤكد اللواء المجدوب أن هذه المهمة كانت هى المهمة الأساسية لحرب الاستنزاف:

«وقد نجحت هذه الحرب فى إعداد المقاتل المصرى إعدادًا جزئيًّا حتى أصبح قادرًا على مواجهة الأسطورة وتحطيمها خلال الساعات الأولى من حرب أكتوبر ١٩٧٣، عندما اجتاح مواقعها على الضفة الشرقية لقناة السويس.. واندفع كالنهر الهادر يجتاح كل ما أمامه متدفقًا بشدة نحو مصبه. والواقع الذى لا يمكن إنكاره أن هذا النهر الذى انطلق يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣، كان لابد أن يكون له منبع. ومن المؤكد أن المنبع الذى انطلق منه هذا النهر حتى اقتحم قناة السويس واكتسح خط بارليف كان هو «حرب الاستنزاف»، وكان المصب هو «تحقيق النصر».

«لذلك كله فإن هذه السنوات الصعبة كانت ضرورية ومهمة، فقد كانت هى المنطلق نحو تغيير طبيعة الصراع وإعادة توجيه مساره وتشكيل مستقبله من جديد. فقد شهدت استعدادات ضخمة جمعت بين سنوات من القتال الشرس ـ هى سنوات «حرب الاستنزاف» الثلاث ـ ثم سنوات من التدريب الشاق ليلًا ونهارًا، والتخطيط الدقيق ـ هى السنوات الثلاث التالية ـ التى أمكن خلالها استكمال إعادة بناء المقاتل المصرى والقوات المسلحة، وبلورة فكر استراتيجى مصرى جديد وضع صياغات جديدة لمفهوم الحرب ومفهوم السلام، وأكد أن الحرب العادلة هى الطريق نحو السلام.. فى زمن لا يعرف سوى منطق القوة. إن هذه الإنجازات التى سبقت الحرب هى التى صنعت مفاتيح النصر».

«لقد دفعت قسوة الصدمة عام ١٩٦٧ العرب فى الاتجاه الصحيح، فاستوعبوا الدروس رغم كثرتها، وصححوا الأخطاء رغم جسامتها، وتحركوا فى كل الاتجاهات العسكرية والسياسية والمعنوية فى آن واحد. لقد احتاج استيعاب تجربة الماضى والإعداد لتجربة المستقبل وقتًا طويلًا نسبيًّا بلغ ست سنوات (١٩٦٧ ـ ١٩٧٣)، وهى فترة أقل كثيرًا مما قدره الأعداء بل والخبراء الأجانب. ومع ذلك أساء البعض فى مصر تقويم هذه الفترة كمرحلة ضرورية للإعداد، بينما لم يولها البعض الآخر ما تستحقه من اهتمام.

(٩)

ويستعرض اللواء المجدوب بعض الجوانب العسكرية والسياسية لحرب الاستنزاف:

- كانت حرب الاستنزاف التمهيد الضرورى السياسى والمعنوى لشن حرب التحرير، والإجراء الوحيد القادر على كسر الجمود العسكرى والتخلص من مشاعر المهانة والإحباط واليأس التى خلفتها كارثة عام ١٩٦٧. وقد ساعد ذلك كثيرًا فى جعل اتخاذ قرار الحرب أمرًا ميسورًا وإجراء ممكنًا، مبنيًّا على قدر كبير من الثقة بالنفس.
- إنه إذا كانت النتيجة الوحيدة التى أفرزتها حرب الاستنزاف هى ما تحقق للجندى المصرى من استرداد للثقة التى فقدها فى حرب ٦٧، ثقته بنفسه وسلاحه وقياداته، فإن هذه النتيجة وحدها وفى حد ذاتها لها من الأهمية مكان كبير، فهى تمثل ركيزة هذا النصر، وكانت أهم المؤثرات الإيجابية التى أثرت على الأداء الميدانى للمقاتل المصرى وأخرجت هذا النصر العظيم فكرًا وعملًا بالشكل الذى أبهر العالم كله».
- كانت حرب الاستنزاف بمثابة مرحلة «البحث عن الذات» التى ضاعت فى خضم حرب ١٩٦٧.. سواء بالنسبة للفكر الاستراتيجى المصرى، أو لعقيدة القتال وروح المقاتل، أو بالنسبة للجندية المصرية عامة. فمن خلالها وجد المخطط العسكرى سبيله الصحيح نحو استخراج عقيدة مصرية خالصة للقتال، وفتح مجال الفكر الاستراتيجى نحو الإبداع والابتكار، سواء للتغلب على العقبات الكثيرة التى يمكن أن تعترض عملية اقتحام قناة السويس وخط بارليف، أو لتقديم الحلول العملية لتعويض فارق المستوى بين التسليح المصرى والتسليح الإسرائيلى.
- وهكذا تمكنت العقول المصرية من وضع استراتيجية الحرب بكفاءة عالية كانت محل تقدير علمى عالمى».

(١٠)

يناقش اللواء المجدوب تفصيلات الأوضاع على الجبهة الأخرى، أى جبهة إسرائيل، ملخصًا الموقف فى النقاط التالية:

- مع بداية حرب الاستنزاف اكتفت الاستراتيجية الإسرائيلية بالرد الحذر المحسوب وبعيدًا عن الجبهة، واختيار أهداف مدنية بعيدة عن تجمعات القوات المصرية. وقد أخذت هذه الأعمال شكل إغارات خاطفة على بعض المناطق الواقعة على ساحل البحر الأحمر أو عمق وادى النيل بالوجه القبلى، مع الحرص الشديد على تفادى وقوع خسائر كبيرة فى الأرواح.

- مع تزايد الضغوط المصرية وارتفاع حجم الخسائر البشرية فى صفوف الجيش الإسرائيلى، بدأت مناقشات واسعة فى إسرائيل حول أفضل الأساليب لمواجهة هذا الاستنزاف البشرى.. حتى انتقل النقاش إلى الصحافة الإسرائيلية، حيث هاجمت صحيفة «هاآرتس» العبرية فى يونيو ١٩٦٩، فكرة شن إغارات برية فى العمق لأنها لن توقف القصف المصرى وستزيد من الخسائر البشرية، ووصفت قيادة إسرائيل بأنها «مضللة».

- انتهت هذه المرحلة باتخاذ قرار استخدام القوات الجوية الإسرائيلية فى ضرب المواقع المصرية غرب القناة.. بالانتقال من استراتيجية «الردع المحدود» باستخدام إغارات قوات الكوماندوز المنقولة بالهليكوبتر فى عمق مصر، إلى استراتيجية «الردع الجسيم» باستخدام الغارات الجوية ضد الأهداف المصرية فى الجبهة، التى بدأ تنفيذها فى يوليو ٦٩ وأطلقوا عليها «الاستنزاف المضاد».

- مع تصاعد نشاط العمليات المصرية وتنوعها فى الشدة وفى اختيار أهدافها فى جبهة القناة وخليج السويس وسواحل سيناء وخليج العقبة، استخدمت مصر قواتها الجوية فى شن غارات جوية خاطفة فى سيناء. وفى سبتمبر ٦٩ كتبت صحيفة «معاريف» العبرية تقول: «إننا ندعى أننا نستطيع الصمود أمام الاستراتيجية المصرية الجديدة.. لأنه ليس أمامنا بديل آخر. فقد استطاعت القاهرة أن تمتص العديد من الضربات الإسرائيلية، وهى مازالت على استعداد لامتصاص المزيد من أعمال قواتنا الجوية.. الأمر الذى يؤكد أنه ليس هناك حل سوى استمرار الحرب مع المصريين والوصول بأحداثها إلى الذروة».

(١١)

وهو يؤرخ لمرحلة قيادة شارون:

- لقد قررت إسرائيل تغيير القيادة الميدانية لجبهة سيناء، فعزلت قائدها «جنرال جافيتش» ـ رغم أنه صاحب نصر يونيو ٦٧ ـ وعينت بدلًا منه الرجل الدموى أو «رجل المهمات الصعبة» ـ كما يطلقون عليه ـ آرييل شارون، فى ديسمبر ٦٩ خلفًا له، وكانت مهامه الرئيسية هى:
- كسر شوكة حرب الاستنزاف المصرية ضد إسرائيل فى جبهة قناة السويس.
- العمل بشتى الوسائل على تخفيض حجم الخسائر البشرية فى صفوف الجيش الإسرائيلى.
- تدمير وسائل الدفاع الجوى المصرية غرب القناة.
- لم تحقق الإجراءات الإسرائيلية أى نجاح، ولم يفلح شارون فى إنجاز المهام التى كُلف بها، ولم تتوقف أعمال الاستنزاف المصرية. وأسقط فى يد القيادة الإسرائيلية، ولم يكن أمامها سوى خيارين:
- الأول أن تطلب وقف إطلاق النار بتدخل من الولايات المتحدة، والثانى أن تتمادى فى غاراتها الجوية وتخترق سماوات مصر إلى العمق وتشن غارات على أهداف مدنية فى الدلتا ووادى النيل. وكان الهدف هو إحداث انهيار فى الجبهة الداخلية المصرية، وبالتالى شل قدرة القيادة المصرية على التصرف. وأخذت القيادة الإسرائيلية موافقة الإدارة الأمريكية، على أمل أن يؤدى ذلك إلى انهيار قدرة الصمود المصرية شعبًا وجيشًا.
- وقد أطلق موشى ديان على هذه الاستراتيجية اسم «استراتيجية السماوات المفتوحة»، والتى بدأ تنفيذها فى ٧ يناير ١٩٧٠ تحت قيادة شارون.
- ورغم ذلك لم يخضع شعب مصر لمطالب إسرائيل.. التى فشلت فى تحقيق أهدافها.

(١٢)

- ويعلق اللواء المجدوب على نهاية الحرب فيقول:

«وللأسف ـ هكذا يقول ـ اتخذ بعض الكتاب المصريين مما تحملته مصر من خسائر من جراء غارات إسرائيل على مصنع أبو زعبل ومدرسة بحر البقر وضد مواقع الصواريخ الجديدة، مبررًا للحكم على حرب الاستنزاف المصرية بالفشل، بل وإدانة القيادة المصرية لاتخاذها قرار هذه الحرب، ومحاولة تشويه هذا العمل الناجح الذى ترك بصماته على نصر أكتوبر ١٩٧٣».

■ ■ ■